المعتمد بن عباد

الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ

تأليف

الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المعتمد بن عباد

الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ

تأليف

الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عزام ، عبد الوهاب ، 1894-1959
المعتمد بن زياد : الملك الشجاع الشاعر المرزا / عبد الوهاب عزام
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
138 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-467-2
1- الفتوحات الاسلامية
2-الاندلس – تاريخ
ا- العنوان

المعتمد بن عباد ، محمد بن عباد ،1014-1095

ديوى: 953,2

رقم الايداع: 2573

بسم الله
الرحمن
الرحيم

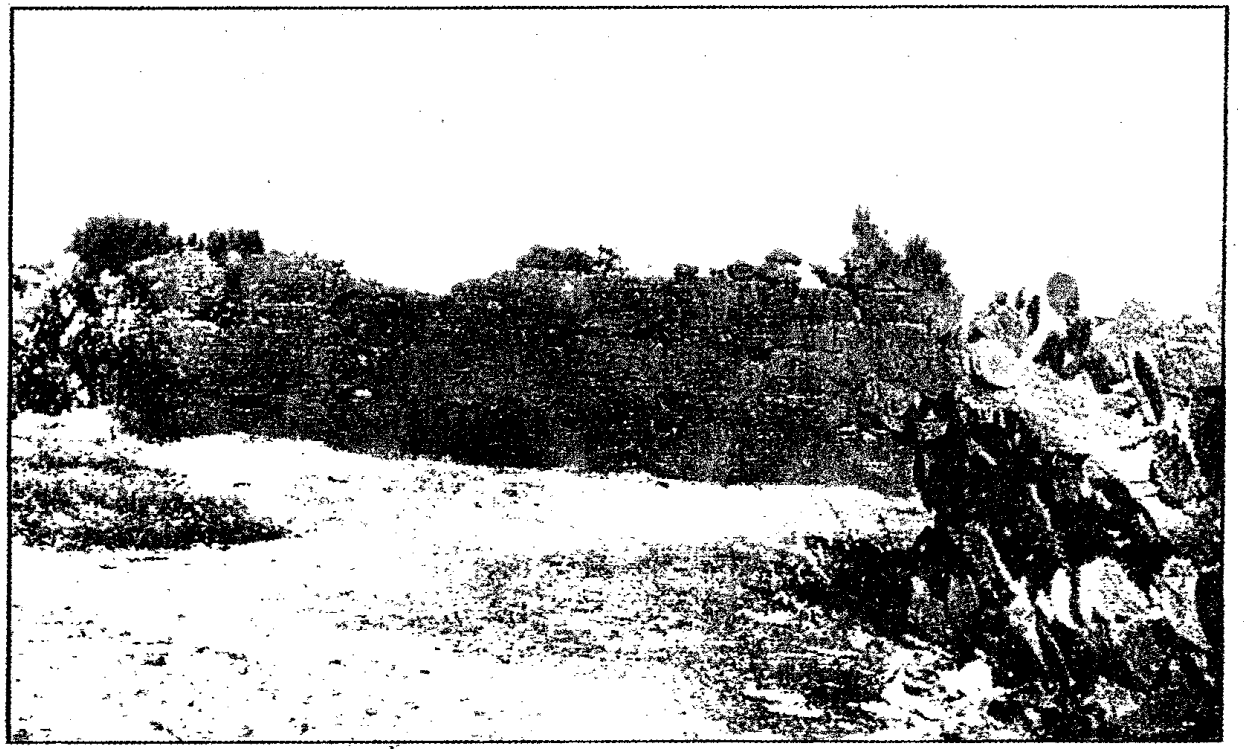

الساحة التى بها قبر المعتمد بن عباد

بسم الله الرحمن الرحيم

١

جاز المسلمون بحر الزقاق إلى جزيرة الأندلس سنة اثنتين وتسعين من الهجرة فى خلافة الوليد بن عبد الملك.

وساروا فاتحين حتى استولوا على مدينة طُلَيْطلة فى السنة التالية. وهى مدينة حصينة صعبة المنال يسّر لهم الاستيلاء عليها فتح ما وراءها.

وامتد بهم الفتح حتى بلغوا جبال البُرتات (جبال البرانس) الحال الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا. اجتازوها فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) وفتحوا مدينة أربونة (ناربون) وجعلوها مبدأ غزواتهم فى فرنسا. ثم فتحوا طلاشة (طولوز) سنة اثنتن ومائتين. وامتد بهم الفتح إلى سنة سبع ومائة ففتحوا جنوبى فرنسا.

وفى رمضان سنة أربع عشرة ومائة، بين مدينة تور ومدينة بواتيى، كانت موقعة بلاط الشهداء. وكان قائد المسلمين عبد الرحمن الغافقى وقائد المسيحيين شارل مارتل. واضطر المسلمون إلى التراجع إذ رأوا أنهم لا قبل لهم بهذه الجحافل الحاشدة فى تلك الأصقاع النائية. وهذا كان منتهى فتح المسلمن فى فرنسا ولكنهم احتفظوا بمدينة أربونة إلى سنة اثنتين وأربعين ومائة حين استولى عليها ملك فرنسا فى عهد الدولة الأموية الأندلسية.

٢

زالت الدولة الأمـوية فى المشرق سنة اثنتـين وثلاثين ومائة من الهـجرة وقام بأمر المسلمين بنو العباس، فأتبعوا بنى أمـية تقتيلا وتشريداً. وكان فيمن فرّ من شباب بنى أمية عبـد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب صقر قريش. لقبه أبو جعفر المنصور إعجابًا بهمته وعزيمته وسياسته.

ضرب عبـد الرحمن فى شمال أفريقـية حتى المغرب الأقـصى ثم اجتاز البحر إلى الأندلس فبايعه الناس أميـرًا عليهم فجمع أمرهم ورد عنهم جيوش العباسيين حينما حاولوا أن يمدوا سلطانهم على الأندلس كما امتد على سائر البلاد الإسلامية.

ودامت دولة بنى أمـية زهاء ثلاثة قـرون. قويت الدولة وتمكنت وامـتد سلطانها فى البر والبـحر. وتوالى على تدبيرها عشرة أمراء من عـبد الرحمن الداخل إلى هشام حفيد عبد الرحـمن الناصر فى إحدى وستين ومائتى سنة. ثم اضطرب أمر الدولة فـتوالى عليها أربعة عـشر حاكمًـا فى ثلاث وعشرين سنة.

وبلغت الدولة أوج مـجدها وعـزها. وبلغت الحـضارة أزهر أعـوامهـا وأنضر أيامها فى ولاية عبد الرحمن الناصر الذى دبر الملك من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠هـ فرد العداء فى الشمال خائبين وأرهـب الطامعين فى المغرب. فاستتب له الملك وتمكن سلطانه، وعـمم المن دولته؛ وعظمت هيـبته، وبـعد صيـته، وازدهرت المدينة واستـبحر العمـران. فبنى الناصر مـدينة الزهراء فى ضاحى قرطبة آية فى العمران وبرهانًا على غنى الدولة وعظمتها وبلوغ الصناعات فيها غايتها.

وخلف عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر ستة عشر عامًا وأمور الدولة متّسقة وأمنها مستتب. ومات الحكم فخلفه ابنه هشام، وهو صبى. فتطلع إلى مقاليد الأمور رجل من عباقرة التاريخ أهّله للسلطان طموحه وحزمه وشجاعته وخلقه ودينه: محمد بن أبى عامر. تسلط ابن أبى عامر على أمور الدولة كلها وأحكم تدبيرها ومكّن هيبتها وأخاف أعداءها، وبلغت مغازيه صوب الشمال أعد ما بلغت فى عصر الدولة الأموية. غزا أكثر من خمسين غزوة لم يهزم فى واحدة حتى مات غازيًا فى الشمال ونقل إلى مدينة سالم فدفن بها سنة ٣٩٢هـ.

ثبّت ابن أبى عامر أركان الدولة ولكنه أضعف البيت الأموى بما استبد دونهم بالأمر وأورث السلطان بينه. ولم يُقر الناس لبنى عامر بما أقروا لبنى أمية، فزالت هيبة الملك وتنازعه بنو أمية وبنو حمود العلويون حتى زالت الدولة كلها سنة ٤٢٢هـ.

٣

ملوك الطوائف

تقسمّ بلاد الأندلس، بعد زوال الدولة الأموية، أمراء تنازعوا رقعتها وظفر كل واحد بما قدر عليه. فقامت إمارات تولاها أمراء سموا ملوك الطوائف واستمر عصرهم زهاء خمسين عامًا.

وكان للطوائف أربعة عشرة دولة فى أرجاء البلاد لا يتسع المجال لذكرها ولا يحتاج هذا المقال إلى تعدادها. فإنما قصدنا إلى بنى عباد من بينهم.

٤

بنو عباد

كان أعظم ملوك الطوائف وأفسحهم. ملكًا وأبعدهم صيتًا وأكثرهم ذكرًا فى التاريخ والأدب بنى عباد ملوك إشبيلية وقرطبة.

قامت دولتهم فى إشبلية سنة ٤١٤هـ ثم اتسعت فاستولت على ملك بنى جمود فى الجزيرة سنة ٤٥٠هـ وعلى ملك بنى جهور فى قرطبة سنة ٤٦١هـ. وامتدت حتى شملت مرسية فى الشرق.

ودامت دولة بنى عباد سبعين سنة وتولاها منهم ثلاثة: أبو القاسم محمد وابنه أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد، وابن هذا أبو القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد.

استمر ملك الأول تسع عشرة سنة (٤١٤ - ٤٣٣هـ) وملك الثانى ثمانيا وعشرين (٤٣٣ - ٤٦١هـ) واستمر ملك المعتمد ثلاثًا وعشرين (٤٦١ - ٤٨٤هـ).

وكان للمعتمد فى الجهاد بلاء عظيم، وفى الجود صيت ذائع، وفى الأدب منزلة عالية، ومن غير الأيام ومصائب الحدثان نصيب موفور. وقصته، كما تأتى، كانها فى المآسى خيالُ شاعر لا حقيقة واقع، وافتتان كاتب لا حادثات تاريخ.

* * *

ينتمى بنو عباد إلى لخم ثم إلى مناذرة الحيرة. تردد ذكر هذا النسب فى أقوالهم وأقوال من أرخوا لهم أو مدحوهم.

من بنى المنذرين وهو انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وفد جدهم نعيم وابنه عطّاف من العريش إلى الأندلس. واستوطنا إقليم إشبيلية. ويعلم أن جدهم إسماعيل بن عباد، وهو جد المعتضد، اتصل بالمنصور ابن أبى عامر فولاه القضاء فلبث قاضيًا إلى أن اضمحلت الدولة الأموية فى أوائل القرن الرابع الهجرى. ثم خلفه فى القضاء والرياسة ابنه محمد بن إسماعيل القاضى جد المعتمد. عظمت مكانته وهو قاض. وكان يحيى بن على بن حمود الحسنى الملقب بالمستعلى، تغلب على قرطبة أيام اضطراب الدولة الأموية فذهب إلى إشبيلية محاصرًا. فاجتمع أهلها وبايعوا القاضى على الإمارة. وقد مكّن لملكه برجل ادعى انه هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين سنة ثم قيل إنه حى فى قلعة من قلاع الأندلس - فدعاه القاضى وجعل له اسم الملك ووطد به سلطانه، وثبّت غمارته حتى توفى الرجل المدعو هشامًا فاستبد القاضى محمد بن إسماعيل بالملك. وكان أديبًا شاعرًا جوادًا حسن السياسة.

* * *

وأبدأ الكلام فى بنى عباد يحمل للفتح بن خاقان صاحب مطمح النفس وقلائد العقيان. وكلامه كلام كاتب متنوق لا مؤرخ محقق. والقصد فى هذا المقال ذكر المعتمد بن عباد فى حالَىْ نعيمه وبؤسه، وإثبات طرف من اخبار بنى عباد فى معرض الأدب وفى زينة الشعر والنثر فى غير إخلال بالتاريخ ولا تحريف للحقائق، ليجمع القارئ بين حوادث التاريخ الأندلسى، وصور من أدب الأندلسيين فى ذلك العصر.

قال الفتح بن خاقان فى كتابه مطمح النفس وهو يذكر الوزير أبا القاسم محمد بن عباد وهو أول من ملك منهم:

«هذه بقية منتماها فى لخم[1] ومرتماها إلى مفخر ضخم. وجدهم المنذر ابن ماء السماء ومطلعهم فى جو تلك السماء.

وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم عن اعبق الزهر. وعمروا ربّع الملك وأمروا بالحياة والهُلك.

ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد، وتبوأ كاهل الإرهاب واقتعد. وافترش من عريّسته، وافترس من مكايد فريسته. وزاحم بعّود، وهدّ كل طود. وأخمل كل ذى زىّ وشارة، وقتل بوحى وإشارة.

ومعتمدهم كان أجود الملاك وأحد نيرات تلك الأفلاك».

إلى أن يقول:

«والقاضى أبو القاسم هذا جدّهم، وبه سفر مجابهم، وهو الذى اقتنص لهم الملك النافر، واختصهم منه بالحظ الوافر. فإنه أخذ الرياسة من أيدى جبابر وأضحى[2] من ظلالها أعيان اكابر... وفاز من الملك بأوفر حصة، وغدت سمته به صفة مختصة، فلم يمح رسم القضاء، ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء. وما زال يحمى حوزته، ويحلو غرته حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الآجام.

وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد، وحل منه فى روض نُمّق له ونُضد... وتسمى بالمعتضد بالله، وارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه، لولا

(١) ينتسب بنو عباد إلى قبيلة لخم ومنها كان أمراء الحيرة المسمون المناذرة.

(٢) أضحى: سيرهم ضاحين أى بارزين للشمس غير مظللين

بطش فى اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وعكر أثناء ذلك صفو العل والنهل. وما زال للأرواح قابضًا، وللوثوب عليها رابضًا، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتضد فاكتحل منه طرفه الرَّمِد. وأحمد مجده، وتقلد منه أى بأس ونجدة، ونال به الحق مناه، وجدد سناه. وأقام فى الملك ثلاثًا وعشرين سنة لم تُعدم له فيها حسنة، ولا سيرة مستحسنة. إلى أن غلب على سلطانه، وذهب به من أوطانه. فنقل إلى حيث اعتقل. وأقام كذلك إلى أن مات، ووارته تربة أغمات».

هذه كلمات الفتح. وأثبت هنا كذلك قول ابن اللبانة الشاعر - وهو الشاعر الوفى، مدح المعتمد أميرًا وأشاد به وواساه أسيرًا - وسيأتى طرف من شعره فى المعتمد.

قال فى بنى عباد:

«بماذا أصفهم واحلّيهم، وأى منقبة من الجلالة أوليهم - فهم القوم تجل مناقبهم عن العد والإحصاء، ولا يُتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء. ملوك بهم زُيّنت الدنيا وتحلّت، وترقت حيث شاءت وحلّت. إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها على الخبر اليقين، أو عدّت المآثر فهم فى ذلك فى درجة السابقين. أصبح الملك بهم مشرق القسام، والأيام ذات بهجة وابتسام. حتى أناخ بهم الحمام، وعطل من محاسنهم الوراء والأمام. فنقل إلى العدم وجودهم، ولم يرع بأسهم وجودهم. وكل ملك آدمى فمفقود، وما نؤخر إلا لأجل معدود.

فأول ناشئة ملُكهم ومحصل الأمر تحت مِلكهم، عظيمهم الأكبر، وسابقة شرفهم الأجل الأشهر، وزينهم الذى يعد فى الفضائل بالوسطى والخنصر، محمد بن عباد ويكنى أبا القاسم، ابن إسماعيل».

وقال ابن اللبانة يصف المعتضد خاصة. وهو ثانى أمرائهم:

«المعتضد أبو عمرو عباد رحمه الله تعالى. لم تخل أيامه فى أعدائه من تقييد قدم، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم؛ حتى لقد كانت فى باب داره حديقة لا تثمر إلا رءوسًا، ولا تنبت إلا رئيسًا ومرءوسًا[1]. فكان نظره إليها شهى مقترحاته، وفى التلفت إليها استعمل جل بُكرَه وروحاته. فبكى وأرّق، وشتّت وفرّق. ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى أن تصان عنه الأسماع، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع».

ويقول المرّاكشى: وكان قد اتخذ خشبًا فى حديقة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الأشجار التى تكون فى القصور. وكان يقول فى مثل هذا البستان فليتنزه. وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب، وحدّة نفس. كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس. وكان قد استوى فى فخامته ومهابته القريب والبعيد لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر أولاده المرشح لولاية عهده».

وفى كلام المراكشى تفسير قول الفتح: كانت فى باب داره حديقة لا تثمر إلا رءوسًا.

وقال ابن بسام فى الذخيرة:

«وكان قد أوتى أيضًا من جمال الصورة وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة

(١) منقول عن ابن خلكان، ترجمة المعتمد بن عباد.

وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحدس ما فاق على نظرائه.

ونظر مع ذلك فى الأداب، قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر، بأزكى طبع، حصل منة لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعمد لها، ولا إمعان النظر فى غمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها.

أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ظاهرة فى معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة. جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كف بارى السحاب بها».

وتوفى المعتضد سنة ٤٣٣هـ بعد أن وسعّ ملكه، ومكّن سلطانه، وأرهب أعداءه، وخلد فى الأدب ذكره بلسانه ولسان شعرائه.

وأما المعتمد فالواصفوه كثيرون. وقد افتن الشعراء فى مناقبه ومآثره، وأولع الكتاب بإخباره وآثاره.

يقول ابن اللبانة[1]:

«ملك مجيد، وأديب على الحقيقة مُجيد. وهمام تحلى به للملك لبَة وللنظم جيد. أفتى الطغاة بسيفه وآد؛ وأنسى بسيبه ذكر الحارث بن عباد. فأطلع أيامه فى الزمان حجولا وغررًا، ونظم معاليه فى أجيادها. جواهر ودررًا. وشيد فى كل مَعدّوة فناءه، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستطرفة أوقاته وآناءه. فنفقت به للمحامد سوق، وبسقت ثمرات إحسانه أىّ بسوق. منع وقرى، وراش وبرى، ووصل وفرى.

(١) نفح الطيب جـ٥ ص ٣٧٦.

وكان له من أبنائه عدة أقمار نظمهم نظم السلك، وزين بهم سماء ذلك الملك. فكانوا معاقل بلاده وحمُاة طارفه وتلاده. إلى أن استدار الزمان كهيئته، وأخذ البؤس فى فيئته. وأثمر الخلاف وظهر، وسلّ الشتات سيفه وشهر. والمعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات بين تلك الثبُات، والمُقام فى ذلك المَقام، إلى أن بُدل القطب بالواقع، واتسع الخرق على الراقع.

فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه كتابه يشعر بالوفاء، فثاب إليه فكر خاطره وفاء. وثبت خلال تلك المدة للنزال، ودعا من رام حربه نزَال. إلى أن أصبح والحروب قد نهبته، والأيام تسترجع منه ما وهبته. فثُلَّ ذلك العرش، واعتدت الليالى حين أمنت من الأرش. فنقل من صهوات الخيول إلى بطون الأجفان[1]. وهذه الدنيا جميع ما لديها زائل، وكل من عليها فان. فما أغنت تلك المملكة وما دَفعتْ، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت. وكل يلقى معجّله ومؤجّله، ويبلغ الكتاب أجله».

ونقل المقرّى قول على بن القطاع فى كتابه «لُمَحَ المُلحَ» عن المعتمد بن عباد:

«أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم سماداً، وأرفعهم عماداً. ولذلك كانت حضرته مُلقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء؛ حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه».

---

(١) نوع من السفن.

وفى نفح الطيب:

«وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد:

وقد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه. وأنا الآن أذكر نبذًا من أخباره، وأردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره. فإنه رحمه الله تعالى جم الأدب رائعه، عالى النظم فائقه»[1].

ويقول المراكشى فى كتاب المعجب: » وكان المعتمد هذا يشبّه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب. وكان شعره كأنه الحلل المنشرّة. واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه.

وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة. وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم. وإذا عدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها يل أكبرها».

هذا كلام مؤلف من المغرب عاش فى القرن السابع، بعد المعتمد بقرنين لا يمدح رغبة ولا رهبة. ولست أوافقه فى كل ما قال ولكنى أنقل قوله وقول غيره إشهادًا على ما اعتقده أدباء الأندلس والمغرب وشعراؤها ومؤرخوها فى المعتمد بن عباد، وما كان لسيرته من الأثر فى نفوس أهل عصره والعصور التى تلته.

(١) نفح الطيب جـ٥ ص ٣٧٧.

وقال مؤلف نفح الطيب بعد نقل طرف من أخبار المعتمد:

«وأخبار المعتمد بن عباد، وما رآه من الملك والعز فى كل حاضر وباد، وما قاساه فى الأسر، من الضيق والعسر وسوء العيش، أمر عجيب يتعظ به العاقل الأريب. وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم فى حالَىْ يُسره وعسره، ومُلكه وأسره، وطيه ونشره، وتجهمه وبشره، فهو كثير، وفى كتب التاريخ منه نظيم ونثير. وقد قدمنا منه فى هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير»[1].

وقال ابن بسام فى الذخيرة:

«كان للمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صار مثل ممن جعل الشعر صناعة، واتخذه بضاعة، لكان رائعًا معجبًا ونادرًا مستغربًا... والعجيب من المعتمد انه مرى سحابه فى كلتا حالتيه فصاب، ودعا خاطره فأجاب. ولا تراجع له طبع، فى الملك ولا بعد الخلع. بل يومه فى هذا الشأن دهر، وحسنته فى هذا الديوان عشر».

وقال الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان[2]:

«ملك قمع العدا، وجمع الباس والندى، وطلع على الدنيا بَدر هدى. لم تتعطل يومًا كفُّه ولا بنانه، آوانة يراعه وآوانة سنانه. وكانت أيامه مواسم، وثغور برّه بواسم، ولياليه كلها درراً وللزمان أحجالاً وغرراً. لم يُغفلها من سمات عوارف، ولم يُضحها من ظل إيناس وارف. ولا عطّلها من مأثره بقى أثرها باديًا، ولقى معتفيه منها إلى الفضل هاديًا. وكانت حضرته مطمحًا

(١) نفح الطيب جـ٦ ص ١٠٥.

(٢) القلائد: ترجمة المعتمد بن عباد.

للهمم، ومسرحًا لآمال الأمم، وموقـفًا لكل كميّ، ومقذفًا لذى انف حميّ. لم تخل من وفد، ولم يصحُ جوّها من إنسجـام رفد. فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكمُاة، ومشاهير الحُماة، إعداد يَغص بهم الفضاء، وأنجاد يُزهى بهم النفـوذ والمضاء. وطلع فى سـمائه كـل نجم متـقد، وكل ذى فـهم منتقـد. فأصبحت حضرته ميـدانًا لرهان الأذهان، وغاية لرمى هدف البيان، ومضمارًا لإحراز خَـصل، فى كل معنى وفـصل. فلم يرتسم فى زمانـه إلا بطل نجد، ولم يتسق فـى نظامه إلا ذكاء ومـجد. فأصـبح عصـره أجمل عصـر، وغدا مصـره أكمل مصر. تسـفح فيه ديم الكرم، ويُفـصح فيه لسـانا سيف وقلم، ويفضح الرضيّ فى وصـفه أيام ذى سلَم[1]. وكان قومـه وبنوه لتلك الحلبْةَ زينا، ولتلك الجـملة عينا. إن ركبـوا خلت الأرض فلكًا يحمل نجـومًا، وإن وهبوا رأيت الغمـام سَجوما. وإن أقدمـوا أحجم عنترة العبسيّ، وإن فخروا أقصر عرَابة الوسيّ. ثم انحرفت الأيـام فألوت بإشراقه، وأذوَتْ يانع إيراقه. فلم يدفع الرمح ولا الحسام، ولم تنفع تلك المنن الجسـام، فتُملّك بعد الملك، وحُط من فلكه إلى الفُلك».

(١) يعنى الشريف الرضى فى غزله.

المعتمد والأدب

نشأت دول الطوائف الأندلسية فى القرن الخمس الهجرى. وهو عصر زهر بالعلوم والآداب فى الأندلس، على ما كان فيها من اضطراب سياسى أطاح بدولة الخلافة الأموية وزاده سقوط الخلافة شدة وانتشاراً.

والقرن الخامس فى الأندلس كالقرن الرابع فى المشرق الإسلامى؛ اضطربت فيع دولة الخلافة وتقلّص ظلها ونشأت منها دول صغيرة تنافست فى دعوة العلماء والأدباء، وتبارت فى الاحتفاء بمن يفد إليها من الشعراء، وإغداق العطاء لهم رغبة فى حسن السمعة وبعد الصيت.

نشأت دول الطوائف فى الأندلس فى القرن الخامس كما نشأت فى المشرق دول السامانيين والبويهيين والغزنويين والحمدانيين وغيرها.

وأرى أن سير العلم والأدب فى الندلس يتأخر قرنًا عن سيرة فى المشرق، فكبار الفلاسفة وتوابغ الشعراء والكتاب الأندلسيين يتأخرون فى الجملة عن نظرائهم فى المشرق قرنًا. ولهذا أسباب لا يتسع لها هذا المجال.

تنافست دول الطوائف فى الأندلس فى المكارم والمفاخر، وفى تشييد الأبنية، وفى الاعتزاز بالعلماء والأدباء والشعراء الذين ينعمون فى ظلالها ويتنافسون فى تخليد مأثرها وتسيير ذكرها فى كتب التاريخ والعلم والأدب.

* * *

وبنو عباد كانوا أكثر ملوك الطوائف حظًا من القوة وسعة السلطان وبعد الصيت، وأوفرهم نصيبًا فى وفود الأدباء والشعراء والعلماء إليهم، بما تسلطوا

على إشبيلية وقرطبة وما يتبعها. وكانت قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ومركز العلوم والآداب ثلاثة قرون، فى عهد الأمويين. وبلغت فيها الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس أوجها.

وبنو عباد عرب من لخم ورثوا السيادة والعزة وورثوا حب الأدب، ولاسيما نظم الشعراء والإعجاب به والمشاركة فيه والإثابة عليه.

يقول الأستاذ بالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى[1]:

«وكان الحال فى أشبيلية شبيهًا بما كان عليه فى المرية. إذ طغى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب فى ظل بنى عباد. ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء. ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب. وقد وصلت الخمريات وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال فى هذا البلاط المصقول حيث عجز شعراء مجيدون - من طبقة على بن حصن وابن حمديس الصقلى وأبى بكر بن زيدون وأبى بكر بن اللبانة وغيرهم كثيرون - عن إدراك ما وصل إليه ابن عمار وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ من تحليق فى سماء الشعر. وقصروا كذلك فى ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رُميك التاجر الأشبيلى قبله - فضلا عن مجاراة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من روائع القصيد. والحق أن المعتمد وُفّق أيام مجده وسعوده إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره فى أبواب الغزل ووصف مجالس السرور ووصف الحرب والنصر إلى آفاق استدرت إعجاب البدو أنفسهم».

---

(١) ترجمة الدكتور حسين مؤنس.

وثبت هذا أن ينظر القارئ فيما كان بين المعتمد وكبار الشعراء من تقارض الشعر فى أحوال شتى. سيجد القارئ أن المعتمد لم يقصر فى مجاراة ابن زيدون وابن عمار وابن حمديس وابن اللبانة بل يجده مبرزاً عليهم أحيانًا. وسيمر بالقارئ كثير من تقارض الشعر بين المعتمد وشعرائه فى نعيمه ودولته وبؤسه ومحنته. وحسبنا هذا شهادة لسان الدين بن الخطيب: وما نقله عن ابن الصيرفى قال عن المعتمد:

«كنيته أبو القاسم. وهو الجواد الشجاع البليغ، ذو الأخبار الشهيرة الذكر، والأنباء المورثة على الدهر. قال ابن الصيرفى:

«المعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده فى الجود، وأصلب نظرائه مكسر هود، فذ فى البلاغة، طرف فى الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب، جزل الألفاظ، كثير المعانى، حسن المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة، حسن الإشارة، جم التوليد. لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه، على كثرة ما اجتلب إليه من أعلامه الثناء، ونثر عليه من دُر الحمد، ووضع فى يديه من حرّ القريض»[1].

كان المعتمد شاعراً مجيداً رقيق الطبع، مرهف الحس، يعرب بالشعر عن عواطفه ويسجل به خواطره فى فرحه وترحه وجده وهزله.

كان هو شاعراً والرميكية أم أولاده شاعرة. وكان بنوه شعراء. ومنهم من ترجم له بين أدباء الأندلس. وكانت بنته بثنية شاعرة ذكرت فى الشواعر الأندلسيات.

---

(١) منقول من مقدمة ديوان المعتمد للأستاذين أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

وسيأتى ذكر أولاد المعتمد وزوجه وأمثلة من شعرهم فى الفصول الآتية.

شعر المعتمد
فى دولته

سيمر القارئ بكثير مما نظم المعتمد زفراتٍ وحسرات فى أربع السنين التى احتواه فيها الأسر فى المغرب.

وأثبت هنا بعض ما نظم أيام عزته وصولته فى دولة أبيه المعتضد ودولته، فى معاهد أنسه وأندية سمره ومجالس أدبه، وفى خطاب الأدباء وملاطفة الخلطاء.

مما نظم فى عهد أبيه المعتضد أبيات أرسلها إليه حين أرسله قائد جيش إلى مالقة فانهزم فغضب أبوه غضبًا شديدًا وعنفه واتهمه أنه ضيّع الحزم باللهو واللعب:

لم أوتَ من زمنى شيئًا ألذ به ... فلست أعرف ما كأس ولا وتر
ولا تملكنى دَلّ ولا خفر ... ولا سبا خلَدى عُنج ولا حوَر
رضاك راحة نفسى لا فعجتُ به ... فهو العتاد الذى للدهر أدخر
وهو المدام التى أسلو بها فإذا ... عدمتُها وقدتْ فى قلبى الفِكَر
أجل لى راحة أخرى كلفت بها ... نظمُ الكلى فى القنا والهام تنتثر

وتوجه إليه الوزير أبو الأصبغ بن أرقم رسولا من المعتصم بن صُمادح ملك المرية ومعه الوزير أبو عبيد البكرى والقاضى أبو بكر بن صاحب الأحباس. فلما قارب إشبيلية أرسل إلى المعتمد أبياتًا منها:

يا مـالكًا عظمـته العـرب والعـجم ... وواحـــــدًا وهو فـى أثوابـه أمم
إنا وردنـاك والأقطـار مظلـمـــــة ... والبـدر يرجى إذا ما التـخّت الظُلَم

فكتب المعتمد إليه:

حـثّـــوا المطىّ ولو لـيـلا بمجـــهلة ... فلن تضلوا ومن وبشـرى لكم علمَ
لأنتم القـــوم إن خطوا يُجـــد قلم ... وإن يقولوا يصب فصلَ الخطاب فم
لا عىّ إن رقـموا كـتبًـا ولا حصَـر ... إذ ينتـدون ولا جـــور إذا حكمـوا
أقـدم أبا الأصـبغ المودود تلق فـتى ... هش المـودة لا يزرى بـه ســــأم
هذا فـــؤادىّ قـذ طار السـرور به ... إن كنت تـنقلك الوخّـــادة الرسُم
سـأكـتم الليـل مـا ألقـاه من بعـد ... وأسـأل الصبح عنكم حـين يبتـسم

وقال المعتضد فى معاهد نعيمه وأنسه فى إشبيلية:

ولقـــد شـربت الراح يسـطع نورها ... والـلـيل قـــد مـــد الـظلام رداء
حـتى تـبـدى البـدر فـى جـوزائه ... ملـكًا تناهـى بهـجـــة وبهـــاء
لمـا أراد تنـزهًـا فى غـــــــربـه ... جـعل المظـلة فـوقـه الجــوزاء
وتناهضـت زُهر النجــوم يحـفــه ... لألاؤها فـــاســـتكـمل الألاء
وترى الكواكـب كـالمواكب حـوله ... رُفـــعتْ ثُرايّـاها عـليـــه لواء
وحكيتُـه فى الأرض بين مـواكب ... وكـــواعب جـمــعت سنـا وسناء
إن نثّــرت تلك الـدروع حنادســا ... ملأت لنـا هذى الكئوس ضيـاء(١)
وإذا تـغنّـت هذه فـى مِـــــزهَـر ... لم تألُ تـلـك على الـتـريك غـنـاء

(١) يعنى بالمواكب الجيش ولذا ذكـر الدروع فى البيت التالى. وذكر فى البـيت الأخير الغناء على التريك يعنى وقع السلاح على البيض فى الحرب.

وقال وقد لمع البرق فارتاعت جارية كانت تسقيه:

يروعــهـا البــرق وفى كــفـهــا بــرق من الــقـــــهـــــوة لمّـاعُ
يا ليت شعرى وهى شمس الضحى كـــــــيـف مـن الأنـوار ترتـاع

وله مع شعرائه مساجلات تدل على أنه لا يتخلف عنهم فى النظم رويّةً وارتجالا ولا يقع دون كبار الشعـراء فى لفظه ومعناه. ويقول ابن حمديس فى ختام قصيدة مدح بها المعتمد:

إنا لتــخـجل فى الإنشـاد بين يدَىْ رب القـوافى التى حُلِّين بالـفقِـقـرِ
من ملك الله حُـسن القـول مقْـولَه فلو رآه ابن حُـجْـر عـاد كالحـجـرَ

ولا أطيل فى الكلام على شعر المعتمـد. فليرجع القارئ إلى ديوانه ففيه ألوان من الشعـر تدل على طبع شاعـر، وخيال بعـيد، وتصـرف فى المعانى والألفاظ بارع[١].

(١) نشر الديوان الأستاذان أحمد بدوى وحامد عبد المجيد وكتبا له مقدمة حسنة وافية.

الشعراء الذين صحبوا المعتمد

نقلت آنفًا قول ابن القطاع فى المعتمد:

«كانت حضرته مَلقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال ومألَف الفضلاء. حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه».

وكيف لا يقصد الشعراء والأدباء، فى عصره زها فيه الشعر والأدب، ملكًا أديبًا شاعرًا يأنس بهم، ويغدقِ عليهم العطاء، ويصادقهم ويُجلّهم ويتخذ منهم وزراء وندماء.

وهذا ذكر من عرفوا بصحبة المعتمد من شعراء الأندلس. ومن هؤلاء ثلاثة ذهبوا مثلا سائرًا فى الوفاء، وسيأتى ذكرهم فى محنة المعتمد. وهم ابن اللبانة وابن حمديس وأبو بحر بن عبد الصمد.

أبو بكر الدانى
المعروف بابن اللبانة

أذكره هنا فى جملة شعراء المعتمد. وأعظم مآثر هذا الشاعر وأكبر مفاخره وفاؤه للأمير فى أسره، ومواساته فى مجنته. وسيأتى ذكره فى أيام هذه المحنة. فحسبى هنا أن أقول إنه اتصل ببنى عباد منذ أيام المعتضد وأحسن مدحهم وأحسنوا جزاءه.

ومن مدائحه موشحة أولها[1]:

---

(١) المغرب جـ٢ ص٤١٥.

كم ذا يؤرقنى ذو حَدِق مرضى صحاحِ لا بليته بالأرق

قـد باح دمـعى لما أكتـمـه

وحنْ قـلبى لمن يـظلمـــه

رشـأ تمرن فى «لا» فـــمـه

كم بـالمنى أبدًا ألـشـمِـــه

يفتر عن لؤلؤ فى نسقِ من الأقاحِ بنسيمه العبق

يقول فيها:

أبدى لنا حُمرة فى يقَقَ خدّ الصباح فيه حمرة الشفق

من لى بمـدح بنى عـبـــاد

ومن مـحـمدهم إحـمـادى

تلك الهـبـات بلا مـتيـعـاد

عذرت مـن أجلها حـسادى

حكتنى الوُرْق بين الوَرَق راشوا جناحى ثم طوقوا عنقى

لله مَلك عـليـه اعـتـمـدا

من يعـرب وهو أسناهم يدا

وهم إذا عنّ وفـــد وفـدا

سألـوا بحارًا وصالُـوا أسُدا

إن حاربوا أو دعوا فى فسق راحوا براح . للندى والعلق

وله موشحة أخرى يقول فيها مادحًا الرشيد بن المعتمد:

سطا وجاد رشيدْ بنى عباد فأنسى الناس رشيدْ بن العباس

وقد ألف هذا الشاعر كتابًا سماه «الاعتماد فى أخبار بنى عباد» كما ألف كتابًا فى أخبارهم بعد نكبتهم سماه «نظم السلوك فى مواعظ الملوك».

* * *

ابن حمديس

ومن الشعراء الذين أظلتهم دولة بنى عباد، فنعموا فى ظلالها، وغرّدوا فى أفيائها، ابن حمديس الصقلى.

فارق عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الصقلى بلده سرقوسة من جزيرة صقلية حينما استولى النرمانديون على الجزيرة سنة سبعين وأربعمائة هـ. وانتهى به المسير إلى إشبيلية. فقرّبه المعتمد بن عباد. وأشاد هو بالأمير وسيّر فى مدحه قصائده، وصحبه فى سِلْمه وحربه، ثم واساه فى أسره.

روى صاحب نفح الطيب عن ابن حمديس أنه قال:

«أقمت بإشبيلية، لما قدمتها على المعتمد بن عباد، مدة لا يلتفت إلىّ ولا يعبأ بى حتى فطنت لحيبتى مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى. فإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذا بغلام معه شمعة ومركوب. فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه. فأجلسنى على مرتبة فنّك. وقال لى افتح الطاق التى تليك. ففتحتها فإذا بكور زجاج على بُعد، والنار تلوح من بابيه. وواقدة تفتحهما تارة وتسدّهما أخرى. ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر فحين تأملتهما قال لى آجز:

انظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت: كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها

فـقلت: فعل امـرئ فى جـفونه رمـد

فـقـال: فـابـتـزه الدهر نـور واحـدة

فـقلت: وهل نجـا من صـروفه أحـد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته.

وللشاعر فى مدح المعتمد الأمـى الجواد الشاعر ووصف حروبه، قصائد غراء تضمنها ديوانه.

ولم يقصـر ابن حمـديس فى الوفاء لأمـيره حـين حلت به الفاجـعة. وذهب إليه فى أغمات كما ذهب ابن اللبانة.

وسيأتى فى الحديث على محنة المعتمـد طرّف من أخبار الشاعر معه فى هذه المحنة. وبعضُ ما أنشأ من الشعر توجعًا للأمير وتفجُّعًا.

أبو بحر بن عبد الصمد

ومن شعراء المعتمد أبو بحر بن عبد الصمد. ومن مديحه قوله:

خـضـعت لعـزتك الملوك الصـيـدُ وعَنَتْ لـكَ الأبطال وهى أسـود

فـاطعـن ولو أن الثـريـا ثُغـرة واضـرب ولو أن السـمِّـاك وريد

وافـتح ولو أن السـماء مـعـاقل واهزم ولـو أن النـجـوم جـنود

وقد رثى هذا الشاعر ممدوحه ووقف على قبره وأنشد قصيدة باكية ومرّغ وجهه فى التراب فأبكى الحاضرين. وسيأتى ذكر هذا.

ابن زيدون

اتصل ابن زيدون بالمعتضد العبادى ولد المعتمد سنة ٤٤١هـ فاحتفى به واستوزره. ثم سماه ذا الوزارتين فلبث فى كنفه زهاء عشرين عامًا. ومدحه وفاء ما لقى فى جنابه من عزة ونعماء.

ولما مات المعتضد رثاه ابن زيدون. واتصل بالمعتمد فكان قرة عينه وزينة دولته. ولما فتح المعتمد قرطبة بلد ابن زيدون رجع إلى بلده فى كنف المعتمد وعلت مكانته. ثم أرسله المعتمد إلى إشبيلية لفتنة وقعت بها ومعه أحد أبناء المعتمد فمات ابن زيدون هناك سنة ٤٦٣هـ.

وله قصائد فى مدح المعتضد يسير بها الذكر ويزهو بها الشعر. منها قصيدة هى فى ترتيب الديوان أول ما مدح به المعتضد.. ويقول فيها:

من مبلغ عنى الحبة إذ أبت ... ذكراهُم أن يطمئن مهاد

لا بأس. رب دنّو دار جامعٍ ... للشمل قد أدّى إليه بعاد

إن أغترب فمواقع الكرم الذىّ ... فى الغرب شمتُ بروقَه أرتاد

أو أنأ عن صيد الملوك بجانبى ... فهم العبيد مليكهم عبّاد

المجد عُذر فى الفراق لمن نأى ... ليرى المصانعَ منه كيف تُشاد

يا هل أتى من ظنّ بى فظنونهُ ... شتّى ترجّعِ بينها الأضداد

إنى رأيت المذرين كليهما ... فى كون مُلك لم يُحله فساد

وبصُرت بالبُردين إرثِ محرِّق ... لم يَخلقا إذ تَخلقُ الأبراد

وعرفتُ من ذى الطَّوق عمرٍو ثاره ... لجَذيمة الوضَّاح حين يُكاد

وأتى بنى النعمانَ يوم نعيمه ... نجمٌ تلقى سعده الميلاد
قد ألُفت أشتاتُهم فى واحد ... إلا يكنهم أمةً فيكاد

وقد ذكر المنذرين ومحرقًا وعمرًا وجذيمة والنعمان وهم من ملوك المناذرة إذ كان بنو عباد ينتسبون إليهم.

ويقول فى قصيدة أخرى:

أليس بنو عباد القبلة التى ... عليها لآمال البرية معكف
ملوك يُرى أحباؤهم فخرَ دهرهم ... ويَخلف موتاهم ثناء مخلَّف

وأما المعتمد فلابن زيدون فيه مدائح كثيرة فى إمارة أبيه وإمارته، تُعرب عن إحماد صحبته، وشكر نعمته. وقد أولع المعتمد بالإلغاز عن أبيات عن أبيات من الشعر يطلب إلى ابن زيدون بيانها. وفى ديوان ابن زيدون كثير منها.

وحسب الشاعر لأن يكتب إليه المعتمد قصيدة يعاتبه بها على تأخر جوابه عن شعر بعث به. يقول فيها:

على ذاك أفديك من ماجد ... تشبث بالظرَّف فيه الهدى
فحينًا أزور به روضةً ... وحينًا أحى به مسجدا
لك العلم مهما أردْ بحره ... لأُروَى به أحمد الموردا
وفيك تجمعت المأثرات ... طرًّا فصرت بها مفردا
شمال تنثُر شملَ الهموم ... نشرك بالرأى شمل العدا
فمتعنى الله بالحظ منك ... ولا زلت لى مؤنسًا سرمدًا

ودمت ودمنا على حالنا كما يصحب الفرقد الفرقدا

فلولاك كانت ربوع السرور منى تجاوب فيها الصدى

فأجاب ابن زيدون بقصيدة منها:

وطاعة أمرك فرض أراه من كل مفترض أوكدا

هى الشرع أصبح دين الضمير فلو قد عصاك لقد ألحدا

وحاشاى من أصلّ الصراط فيعدو بى الكفر عما بدا

وأُخلف بالوعد مَن لا أرى لدهرى إلا به موعدا

أتانى عتاب منى أوكده فى نشوات الكرى أسهدا

وفى أبيات المعتمد وابن زيدون ما يُرى القارئ أن المعتمد لا يقصر فى النظم عن الشاعر الكبير. ويطرد هذا فيما نراه فى ديوان ابن زيدون من شعر له وللمعتمد فى مراسلاتهما ومساجلاتهما - ما عدا القصائد المطولة التى لا نجد للمعتمد امثالها.

ومما ينبغى ذكره هنا أن أحد حساد ابن زيدون أرسل إلى المعتمد شعراً يعرّض فيه بابن زيدون، ويغرى المعتمد بقتله وقتل كل من يرتاب فيه ويتبع سنة أبيه فى قتل أعدائه. وأول الشعر:

يأيها الملك العلىّ الأعظم اقطع وردى كلّ باغٍ ينسم

وأحسم بسيفيك داء كلّ منافق يبدى الجميل وضدَّ ذلك يكتم

لا تحقرنّ من الكلام قليله إن الكلام له سيوف تكلِم

وهى سبعة وعشرون بيتًا.

فكتب المعتمد على ظهر الورقة التى فيها الشعر:

كـذبت مُنا صرّحـوا أو جمـجمـوا ... الدين أمـتن والسـجيـة أكـرم
خنـتم ورمـتم أن أخـون وإنما ... حـاولتـمُ أن يُـسـتـخفّ يلـملم
وأردتم تضـيـيق صـدر لم يَضق ... والمرُ فى ثُـغـرَ الصـدور تُـحطمّ
وزحـفـتم بمحـالكم لمجـرّب ... مـا زال يثبت للمـحـال فـيـهـزم
أنّى وجـوتم غـدر مـن جـرّبتم ... منـه الوفـاءَ وظلـمَ من لا يظـلم
أنا ذاكُم لا البـغـىُ يُثـمـر غـرسُـه ... عندى ولا مـبـنى الصنيـعـة يثُلَم
كـفُّـوا وإلا فـارقـبـوا لى بطشـة ... يُلقَى الـسـفـيـهُ بمـثلها فـيـحلّم

وبلغت القصة ابن زيدون فأنشأ خمسين بيتًا يمدح المعتمد ويشكره على تخييب مسعاة الساعين - منها:

أنى أؤدى فـرض أنعـمـك التى ... وبَلتْ كـمـا وبل السحـاب المُـجِم
أمطيـتَنى متن الـسـمَّـاك برتبـة ... عليـاء منكـبُ عـزها لا يُـزحَم
وتركتَ حـسـادى عليك وكـلهم ... شـاكى حـشـا يذوى وأنف يُرغمَ
نصح العـدا فيـزعمـهم فوقـمتـهم ... والغشّ فى بعض النصـائح مُـدغَم
وثـنـاهُـم ثـبـتٌ قـنـاةُ أنـاتـه ... خلقـاء يَصلب عـودها إذ يُـعـجَم
وزهاهم نـظم الهُـراء فكفَّـهم ... نظمٌ عـقـود السـحـر منـه تُنظمَ

ابن عمار

اتصل الشاعر ابن عمار بالمعتضد بن عباد وبالمعتمد فى أيام أبيه المعتضد وله فيهما مدائح، وكان المعتمد قاد جيشًا إلى شلب ففتحها سنة ٤٤٤هـ ولقى هناك أبا بكر بن عمار. وتمكنت بينها المودة ومدح الشاعر أميره وصديقه بقصائد بليغة سارت بين الأدباء وذاعت.

وصحب ابن عمار المعتمد إلى إشبيلية فأقام معه إلى أن انكر المعتضد شغل ابنه بهذا الشاعر فنفاه إلى سرَقُسطة.

ولما تولى المعتمد بعد وفاة أبيه دعا صديقه الشاعر وخيرَّه فى ولاية يُولاها فاختار شلب.

ثم لم يصبر المعتمد عنه فدعاه إلى حضرته واستوزره. وشارك ابن عمار فى جروب المعتمد التى دفع بها الأسبان عن إشبيلية كما شارك من قبل أبو الطيب فى حروب سيف الدولة.

وفتح ابنُ عمار مرسية للمعتمد فملكه العُجب، وتزيا بزىّ الأمراء حتى ارتاب فيه المعتمد.

ونظم ابن عمار قصيدة يفخر فيها ويحرّض أهل بلنسية على الثورة على أميرها. وكان صديق المعتمد وأول القصيدة.

بشر بلنسية وكانت جنة أن قد تدلت فى سواء النار

ويقول فيها:

كيف التفلت بالخديعة من يدىْ رجل الحقيقة من بنى عمّار

فغضب المعتمد على ابن عمار وعارض قصيدته بشعر فيه سخرية ببنى عمار. فثار الشعر وأنشأ شعراً هجا به المعتدم وأم أولاده الرميكية هجاء مقذعًا. ووقعت نسخة من الشعر بخط ابن عمار فى يد المعتمد. وانتهت الحادثات بأسر ابن عمار فى بعض مغامراته فأسلمه آسره إلى المعتمد فحبسه وقتله.

ومما كتب المعتمد للوزير ابن عمار أيام صداقتهما:

لما نأيتَ نأى الكرى عن ناظرى ورددتَه لما رجعتَ عليه[1]

طلب البشير بشارة يُجزَى بها فوهبت قلبى واعتذرت إليه

وفى نفح الطيب[2]:

ركب المعتمد فى بعض الأيام قاصداً الجامع والوزير أبو بكر بن عمار يسايره. فسمع أذان المؤذن - فقال المعتمد:

هذا المؤذن قد بدا بأذانه

فقال ابن عمار: يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد: طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار: إن كان عقد ضميره كلسانه

وأدخلت على المعتمد يومًا باكورة نرجس فكتب إلى ابن عمار يستدعيه:

---

(١) فى نفح الطيب: لما انصرفت إليه.

(٢) جـ٥ ص ١٤٩.

قــــد زارنا الـنرجس الذكـى وآن مـن يومـنـا الـعــــشـىّ
وعـنـدنا مـــــجلس أيـق وقـــد ظمـــئنا وفـــيـــه رى
ولى خلـيل غــدا ســمـــيّــتى يا ليــتــه ســاعــد السـمى[(1)]

فأجابه ابن عمار:

لبـــيــك لبـــيــك من مناد لـه الـنـدى الـرحـب والـنـدىّ
هأنـا بالبـــاب عـــبـــدٌ قِنّ قِـــبْلتـــه وجــهك السنىّ
شـــرّفـــه والـداه باسـم شــرفــتــه أنـت والنـبىّ

وكان المعـتمد غـضـب على ابن عمار فى بعض الحـادثات. وعتب ابن عمار على المعتمد فكتب إليه يعتب ويطلب الصفح فى قصيدة أولها:

أأسلك قصدى أم أعوج عن الركب فقد صرتُ من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى فـأجعله حظى أم الحظ فى القـرب

ويقول فيها:

أهابـك للحـق الذى لك فـى دمى وأرجـوك للحب الذى لك فى قلبى
أيُظلم فى وجـهى كذا قمـرُ الدجى وتنبو بكفى صفحةُ الصارم العضب

إلى أن يقول:

أمـــا إنـه لولا عـــوارفك الـتى جرت جـريان الماء فى الغصنُ الرطب
لما سُمت نفـسى ما أسومَ من الأذى ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى

---

(١) المعتمد وابن عمار كلاهما اسمه محمد.

فأجاب ابن عباد:

تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب ... وردٌ تلقك العُتبى حجابًا من العَتب

متى تلقنى تلق الذى قد بلوتَه ... صَفوحا عن الجانى رءوفًا على الصَحب

سأوليك منى ما عهدتَ من الرضا ... وأصفح عما كان إن كان من ذنب

فما أشعرَ الرحمن قلبىَ قسوة ... ولا صار نسيان الأذمّة من شعبى

تكلفته أبغى به لك سلوة ... وكيف يعانى الشعر مشتركُ اللب

ولكن الشاعر أشفق من العودة إلى المعتمد، فاستمر على نفاره حتى أسلمته الحوادث إلى يد المعتمد. وقصيدة ابن عمار التى هجا فيها المعتمد مطلعها:

ألا حى بالغرب حيًّا حلالا ... أناخوا جمالاً وحازوا جمالا

وعرّج بيُومين أمّ القرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا

ويومين قرية بإشبيلية. كان منها أولية بنى عباد.

ويقول فيها عن الرُميكية أم أولاد المعتمد:

تخيرتَها من بنات الهجان ... رميكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجارين عمًّا وخالا

قصار القدود ولكنهم ... أقاموا عليها قُرونًا طوالا

إلى أن يقول:

سأهتك عرضك شيئًا فشيئًا ... وأكشف سرك حالاً فحالا

ومنها:

فيا عامر الخيل يا زيدها   منعت القرى وأبحتَ العيالا

وهذا من ابن عمار كفران نعمة وحمق. أنشأ هذا الهجاء وظن أنه يخفى على المعتمد فبلغه بخط ابن عمار كما قيل. فكان فيه حتفه.

ومما استعطف به المعتمد وهو فى سجنه - قصيدة أولها:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح   وعذرك إن عاقبتَ أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزيّة   فأنت إلى الأدنى من الله أجنح

ويقول فيها:

أقلنى بما بينى وبينك من رضا   له نحو رَوْح الله باب مفتّح

وعَفّ على آثار جُرم جنيتُه   بهبة رُحمَى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم   فكلّ إناء بالذى فيه يرشح

ويختمها بقوله:

سلام عله كيف دار به الهوى   إلىّ فيدنو، أو علىّ فينزح

ويَهنيه إن متّ السلو فإنى   أموت ولى شوق إليه مبرّح

عبد الجليل بن وهبون

يقول صاحب قلائد العقيان فى ترجمة هذا الشاعر إنه كان متصلا بالوزير الشاعر ابن عمار «فأعلقه بدولته وألحقه بجملته ونفقه بعد الكساد، وطوّقه من استخلاصه ما أغاظ به الحساد. كان يعتقد تقدمه، ويعقد بنواصى الشعراء قدَمَه، إلا أنه مع تمييزه له بالإحظاء، وتجويزه إياه عند الاقتضاء، لم يوصله عند المعتمد إلى حظ، ولم ينله منه إلاّ كرّة لحظ».

ويقول أيضاً فى ترجمته:

«ودخل المرية وقد أحرج المعتمدَ على الله وأضجره، حتى أبعده وهجره. فلما كان يومُ العيد وحضر المعتصمَ شعراؤه، واجتمع كتابه ووزراؤه، بعث فى عبد الجليل فتأخر وزرى بالحال وسخر. وقال: أبعد المعتمد أحضر منتدَى؟ أو أستمطر جودًا أو ندى؟ وهل تروق الأعياد إلا فى فنائه أو تحسن الأمداخ إلا فى سنائه.

دنا العيد لو تدنوا لنا كعبةُ المنى ... وركن المعالى من ذؤابة يعرب

فوا أسفًا للشعر تُرمَى جِماره ... ويا بُعد ما بينى وبين المحصّب

أقول: المعتصم المذكور هو ابن صمادح أمير المرية. ولعل القارئ يسأل: كيف جرؤ ابن وهبون على الامتناع عن حضرة المعتصم يوم عيد وهو فى بلده؟ وكيف قال إنه لا يمدح إلا ابن عباد؟ والجواب أنا لا نعلم أن ابن وهبون جهر بهذا القول فى المرية. ثم مدحهُ المعتمد ولو جهر به، يحميه من نقمة المعتصم إذ كان المعتمد أميرًا يهابه أمراء الطوائف ويتوددون إليه.

وفى نفح الطيب[1] أن المعتمد جلس يومًا والبزاة تُعرض عليه فاستحثّ الشعراء فى وصفها، فصنع ابن وهبون بديهًا:

للصيد قبلك سنّة مأثورة ... لكنها بك أبدع الأشياء

تُمضى البزاة وكلما أمضُيتها ... عاطيتها بخواطر الشعراء

وأنه كان فى قصر المعتمد فيل من الفضة، يتدفق الماء من فمه إلى بركة فقال عبد الجليل بن وهبون قصيدة فى وصفه.

وهكذا يُعدّ ابن وهبون من الشعراء الذين اتصلوا بالمعتمد وعاشوا فى كنفه. وسيأتى فى أخبار وقعة الزلاقة أنه كان ممن حضر مجلس المعتمد حين هنأه الناس وأنه أعد قصيدة فى هذا فلما سمع القارئ احتقر قصيدته.

شعراء آخرون

ومن الشعراء الذين مدحوا المعتمد ابن القزاز محمد بن عُبادة.

وله قصيدة يذكر فيها جرح يد المعتمد فى وقعة الزلاقة التى قدمنا ذكرها يقول فيها:

جلبتَ إلى الأعادى أسدَ غابٍ ... براثنُها الأسنَّة والصِّفاح

وقفت وموقفُ الهيجاء ضنك ... وفيه لباعث الرحب انفساح

وألسنة الأسنّة قالاتٌ ... إذا ظهر المؤيّد لابراح[2]

ومنها:

وقالوا كفّه جُرحتْ فقلنا ... أعاديه توافقها الجراح

(١) جـ٦ ص ٢٩٣.

(٢) المغرب جـ٢ ص ١٣٤.

وما أثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل الجود فيها فأمسى فى جوانبها انسياح
وقد صحت وسحّت بالأمانى وفاض الجود منها والسماح

ومن شعراء المعتمد ابن مرزقان مولاه، وأبو الوليد المصيصى، وابن المرعز النصرانى الإشبيلى[1] وغيرهم.

وقلّ أن تجد شاعرًا فى الأندلس أو ما يقاربها من البلاد إلا اتصل بالمعتمد ومدحه ونال جوائزه.

هذا إلى شعراء اتصلوا بالمعتضد ومدحوه، ولم يدركوا إمارة المعتمد، مثل على بن حصن. وقد استوزره المعتضد ثم فتك به[2].

ومن غريب ما يُروى أن الحصرى الشاعر، كان ألّف للمعتمد كتاب «المستحسن من الأشعار» فلم يُقدر له لقاء المعتمد إلاّ حين اجتاز إلى طنجة أسيرًا.

يقول صاحب النفح:

«فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى: ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته، فوالله ما أملك غيره. فوجد تحته جملة مال فأخذه»[3].

(١) المغرب جـ١ ص ٢٦٤.
(٢) المغرب جـ١ ص ٢٤٥.
(٣) المغرب جـ٥ ص ٣٧٩.

ملوك الطوائف ونصارى الشمال

ضعفت سطوة المسلمين فى الأندلس، بعد عبد الرحمن الناصر والمنصور ابن أبى عامر إذا ضعفت الدولة الأموية التى سيطرت على البلاد قوية مهيبة ما بين سنة ١٣٨ وسنة ٤٠٠هـ ثم زلزلت حتى زالت سنة ٤٢٢هـ.

وتقسّم ملوك الطوائف البلاد بينهم متنافسين متنازعين. كلّ يهتم بنفسه ومُلكه، ويلقى العدو وحده إذا نزلوا بساحته. حتى طمع فيهم العدو وفرض عليهم الجزية. فأدّوها هائبين مؤثرين العافية، راضين بالسلامة.

يقول الأستاذ بلنثيا فى كتابه «الفكر الأندلسى»[١]:

«إن انتثار عقد الأندلس وتفرق أمره فى دول الطوائف كان سبب ضياع أمره. لأن هذه الدويلات الصغيرة كانت على حال من الضعف لم تستطع معها أن تثبت لهجمات النصارى الذين انتهجوا خطة تختلف عما كان عليه المسلمون إذ ذاك. واتجهوا إلى توحيد قواهم أمام المسلمين الذين لم تتوقف الخصومات بينهم قط. بل أصبح ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) فى مركز مكن له من أن يُعين بعض ملوك الطوائف على بعض ويتدخل فى شئون مملكة بلنسية. وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين حتى خافه المعتمد وزوجه إحدى بناته[٢].

وزاد هذا الخنوعُ طمعَ الأسبان وألفافهم واجتراءهم. فاشتطوا فى الجزية وساموا المسلمين الهوان. حتى أرسل ألفونسو السادس ملك الفرنج إلى

---

(١) ترجمة الدكتور حسين مؤنس.

(٢) رواية غريبة لم أطلع عليها فى كتاب عربى. وما أظن المعتمد ذل هذا الذل.

المعتمد ابن عباد يطلب زيادة الجزية ويشتط فى مطالبه فغضب المعتمد وقتل الرسل وعزم على الحرب، وهو يعلم أنه لا قبل له بالعدو وإن اعتضد بملوك الطوائف جميعًا. ففاوض هؤلاء الملوك فى الاستنجاد بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الذين قامت دولتهم فى المغرب فتية قوية فيها قوة البادية وشظفها وخشونتها، وفيها الحماسة الإسلامية لم يطفئها الترف، ولم يوهنها السكون إلى الدعة وإيثار العاقبة.

وأدع الكلام هنا لأبى عبد الله الحميرى الأندلسى صاحب «الروض المعطار» ليقص هذه القصة مفصلة إلى موقعة الزلاقة وما بعدها. وأنا أوثر فى كل هذا المقال أن أقص حوادث الأندلس بلسان أهله لأجمع إلى التاريخ صورًا من الأدب وأمثلة من أقوال الكتاب والمؤرخين فى ذلك العصر.

وهذا ما كتبه صاحب «الروض المعطار»:

«وكان السبب فى ذلك فسادَ الصلح المنعقد بين الطاغية وبين المعتمد[1] فإن المعتمد اشتغل عن أداء الضريبة فى الوقت الذى صارت عادته يؤديها فيه بغزو ابن صمادح صاحب المرية واستنقاذه ما فى يديه بسبب ذلك فتأخر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها. فاستشاط الطاغية غضبًا وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة. وأمعن فى التجنى فسأل فى دخول امرأته القُمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها، حيث أشار إليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى منه معظمة عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم. وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة

(١) يروى أن المعتمد عاهد ألفونسو ليدفع به شر بنى ذى النون فى طليطلة، وأن هذا العهد مكن الطاغية من الاستيلاء على طليطلة فندم ابن عباد حين لم ينفع الندم.

الزهراء غربى مدينة قـرطبة. تنزل بها فتختلف منهـا إلى الجامع المذكور حتى تكون تلك الولادة.بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع. وزعـم أن الأطباء أشاروا علـيه بالولادة فى الزهراء كـما أشار عـليه القسيسون بالجامع. وسفر بـذلك بينهما يهودى كان وزيرًا لابن فرذلند فتكلم بين يدى المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه. فأيأسه ابن عباد من جميع ذلك فأغلظ له اليـهودى فى القول وشـافهه بما لم يحـتمله. فأخذ ابن عـباد محبرة كانت بين يديه فانزلها على رأس اليهودى فألقى دماغه فى حلقه. وأمر به فصلب منكوسًا بقرطبة.

واستـفتى ابنُ عبـاد الفقهـاء لما سكت عنه الغضب عن حكم مـا فعله باليهودى. فبـادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصـة فى ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة إلى مـا يستوجب له القتل إذ ليس له أن يفعل مـا فعل. وقال للفقهـاء حين خرجوا: إنما بادرت بالفـتوى خوفًا أن يكسل الرجل عـما عزم عليه من منابذة العدو وعسى الله أن يجعل فى عزيمته للمسلمين فرجًا.

وبلغ ألفنسو ما صنع ابن عبـاد فأقسم بآلهته ليغزونَّه بإشبـيلية ويحصره فى قصره. فجرد جـيشين جعل على أحدهما كلبًا من مسـاعير كلابه. وأمره أن يسـير علـى كورة باجـة من غـرب الأندلس، ويغـير على تـلك التخـوم والجهات ثم يمر على لـبلة إلى إشبيلية. وجعل موعده إياه طـريانة للاجتماع معه. ثم زحف ابن فرزلند بـنفسه فى جيش آخر عرمرم. فـسلك طريقًا غير طريق صاحبه. وكلاهما عاث فى بلاد المسلمـين وخرّب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد. وفى أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريًا عليـه: «كثر بطول مقامى فى مـجلس الذبان، واشتد على

الحرّ. فألقنى من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عنى» فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك. وسأنظر لك فى مرواح من الجلود اللمطية فى أيدى الجيوش المرابطية تروّح منك لا تروح عليك إن شاء الله». فلما ترجم لابن فرذلند توقيع ابن عباد فى الجواب، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال.

وفشا فى بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عباد وما أظهر من العزيمة على إجازة الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فرذلند. فاستبشر الناس وفُتحت لهم أبواب الآمال. وانفرد ابن عباد بتدبير ما عزم عليه من مداخله يوسف بن تاشفين. ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه من ذلك. فمنهم من كتب إليه ومنهم من شافهه، كلهم يحذره سوء عاقبة ذلك وقالوا له: الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد. فاجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا: رعى الجمال خير رعى الخنازير. أى أن كونه ماكولا لابن تاشفين أسيرًا يرعى جماله فى الصحراء، خير من كونه ممزقًا لابن فرذلند ففى الممكن أن يفيا لى ويُبقيا علىّ، ويمكن ألا يفعلا فهذه حالة الشك. وأما حالة اليقين فهى أنى إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله. وإن استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله. فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه. وحينئذ أقصر أصحابه عن لومه.

فلما عزم خاطب جاريه المتوكل عمر بن محمد صاحب بطليوس، وعبد الله ابن حبوس بن ماكسن الصنهاجى صاحب غرناطة يامرهما أن يبعث إليه كل واحد منهما قاضى حضرته ففعلا. ثم استحضر قاضى الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه. فلما اجتمع القضاة عنده

بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرّفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد وأسند إلى ابن زيدون ما لابد منه فى تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية[1]. وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته. فيستمع إليهم ويُصغى لقولهم وترقّ نفسه لهم. فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد وقد آذن صاحب سبتة بقصده الغزو وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلّى الجيوش تجوز فى المجاز. فتعذر عليه. فشكاه يوسف إلى الفقهاء فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبتة.

ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مثواهم، وجدّدوا الفتوى في حق صاحب سبتة. واتصل ذلك بابن عباد فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة فانتظمت فى سلك يوسف. ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ثم انصرفت إلى مرسلها.

ثم عبر يوسف البحر عبوراً هنيئًا حتى أتى الجزيرة ففتحوا له وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات. وجعلوا سماطًا أقاموا فيه سوقًا جلبوا عليه من عندهم من سائر الرافق. وأذنوا للغزاة فى دخول البلد والتصرف فيها. فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين وتواصوا بهم خيراً.

---

(١) يقول المراكشى إن المعتمد نفسه عبر إلى المغرب لاستنجاد يوسف وأحسب هذا وهمًا من المراكشى.

فلما عبر يوسف وجميع الجيوش انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشًا بعد جيش، وأميرًا بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف. وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات. ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشّطه. وتواردت الجيوش مع أمرائها فى إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية فى مائة فارس ووجوه أصحابه. فاتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه. فبرز إليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا. وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص. فشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر. وتضرعا إلى الله تعالى فى أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه مقربًا إليه. وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، ورجع ابن عباد إلى جهته. ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وألطاف أوسع بها محلة ابن تاشفين. وبانوا تلك الليلة.

فلما صلوا الصبح ركب الجميع. وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم إلى إشبيلية ففعل ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم. ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج واخرج. وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف بكل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا.

ولما تحقق ابن فرذلند جواز يوسف، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها. ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم. فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يحصى عدده. وجعل يصغى على أنباء المسلمين متغيظًا على ابن عباد، جافيًا ذلك عليه، متوعدًا له. وجواسيس كل فريق مترددون بين الجميع. وبعث ابن فرذلند إلى

ابن عباد: إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ولا أكلفكم تعبًا. أمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل وده ووزرائه: إنى رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادى فناجزونى بين جُدرها، وربما كانت الدائرة على، فيكتسحون البلاد ويحصدون من فيها فى غداة، لكن أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم. فإن كانت علىّ اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى. فيكون فى ذلك صون لبلادى وجبر لمكاسرى. وإن كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم فىّ وفى بلادى، إذا ناجزونى فى وسطها.

ثم برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه. وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. فالمقلل يقول: كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع. ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان. وأما النصارى فيتعجبون ممن يزعم ذلك[1] ويقوله. واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين. ورأى ابن فرذلند فى نومه كأنه راكب على فيل فضرب نقيرة طبل فهالته رؤياه وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ودس يهوديًّا إلى من يعلم تأويلها من المسلمين فدل على عابر فقصها عليه ونسبها إلى نفسه فقال له العابر: كذبت ما هذه الرؤيا لك ولابد أن تخبرنى من صاحبها وإلا لم أعبرها لك، فقال له: أكتم ذلك هو ألفنسو بن فرذلند فقال العابر: قد علمت انها رؤياه ولا ينبغى أن تكون لغيره وهى تدل على بلاء عظيم ومصيبة فادحة

(١) النفح: ويرون أنهم أكثر من ذلك كله.

تؤذن بصلبه عما قريب؛ أما الفيل فقد قال الله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل». . السورة، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى: «فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير». . . الآية، فانصرف اليهودى إلى ابن فرذلند وجمجم له وذكر له ما وافق خاطره ولم يفسرها له.

ثم خرج ابن فرذلند ووقف على الدروب، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الندلس، فتقدم يوسف فقصده، وتأخر ابن عباد لبعض الأمر ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته وسار وهو يتفاءل لنفسه مكملا البيت الشهور (كامل):

لابد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب

غزو عليك مبارك ... سيعود بالفتح القريب

لله سعدك إنه ... نكس على دين الصليب

لابد من يوم يكون ... أخًا له يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد فلقيهم بما يجب من الأقوات والضيافات وبذل مجهوده؛ ثم جاءهم الخبر بشخوص ابن فرذلند إليهم، ولما أزدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفًا عليهم من مكايد ابن فرذلند إذ هم غرباء لاعلم لهم بالبلاد وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيفًا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طرق محلاتهم فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يخطئ إذ ذاك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم.

ثم كتب يوسف إلى ابـن فرذلند يدعوه إلى الإسـلام أو الجزية أو يأذن بحـربه، فامتـلأ غيظًـا وعتا وطغـا بما يدل على ضـقائه، وقـامت الأساقـفة والرهبان فـرفعـوا صلبهم ونشروا أناجـيلهم وخرجـوا يتبايـعون على الموت، ووعظ يوسف وابن عـباد أصحـابهما، وقـام الفقـهاء والعبـاد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهـم الفرار، وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صـبيحة يومهم وهو يوم الأربعاء، فأصـبح المسلمون قد أخذوا مـصافـهم، فكع ابن فـرذلند ورجع إلى إعـمال الخـديعـة ورجع الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتـهم. ثم أصبح يوم الخميس فأخذ ابن فـرذلند فى إعمال الحيلة فبعث لابن عباد يقول: غدا يـوم الجمعة وهو عيدكم وبعده الأحد وهو عيـدنا فليكن لقاؤنا بيـنهما وهو يوم السـبت. فعـرّف المعتمـد بذلك يوسف فقـال: نعم، فـقال له المعـتمـد: هذه خديعـة من ابن فرذلند إنما يريـد غدر المسلمين فلا تطمـئن إليه وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجـمعة كل النهار وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات خائفين من كيد العدو وبعـد مضى جزء من الليل انتـبه الفقيـه الناسك أبو العباس أحـمد بن رميلة القرطبى (وكـان فى محلة ابن عباد) فرحًا مـسرورًا يقول إنه رأى النبى ﷺ فبـشره بالفتح والشـهادة له فى صبيـحة غد، وتأهب ودعـا ودهن رأسه وتطيب وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقًا لما توقعه من غدر ابـن فرذلند فحـذروا أجمـعين ولم ينفع ابـن فرذلند ما حـاوله من الغدر.

ثم جاء فى الليل فـارسان من طلائع المعتمـد يخبران أنهمـا أشرفا على محلة ابن فـرذلند وسمعا ضـوضاء الجيـوش واضطراب الأسلحة. ثم تلاحق

بقيـة الطلائع محققـين بتحـرك ابن فرذلند، ثم جاءت الجـواسيس من داخل محلة ابن فـرذلند يقولون: استـرقنا السمع الساعة فـسمعنا ابن فـرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوى بصـائر فى الجهاد فهم غـير عارفين بهذه الـبلاد وإنما قادهم ابن عبـاد، فاقـصدوه واهجـموا عـليه وصـبروا، فـإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده. ولا أرى ابن عباد يصبـر لكم إن صدقتموه الجملة. وعند ذلك بعث ابن عـباد كـاتبه أبا بكر ابن القـصيـرة يطوى المحلات حـتى جاء يوسف بن تاشفـين فعرفه بجليـة الأمر فقال له: قل له إنى سـأقرب منك إن شاء الله تعـالى. وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتـيبة رسمـها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارًا ما دام ابن فرذلند مشتغلاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيـرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غـشيته جنود ابن فرذلند، فـصدمـها ابن عبـاد صدمة قطـعت أمله ولم ينكشف له، فحـميت الحرب بينهـما، ومال ابن فـرذلند على المعتمـد بجموعـه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد صبرًا لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريـقه، وعـضـتـه الحرب واشـتـد البـلاء وأبطأ عليـه الصحـراويون وساءت ظنون أصحـابه وانكشف بعضـهم وفيهم ابنه عـبد الله وأثخن ابن عباد جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغيـه وجرحت يمنى يديه وطعن فى أحد جـانبيه وعقـرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يـقاسى حياض الموت ويضرب يمينًا وشمالا، وتـذكر فى تلك الحالة ابنا له صغـيرًا كان مغـرمًا به تركه بإشبـيلية عليلاً اسمه العلاء وكنيته أبو هاشم فقال (متقارب):

أبا هاشم هشمتنى الشفار ولله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة وكان بطلاً شهمًا فنفس بمجيئة عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبولة تصدع الجو، فلما أبصره ابن فرذلند وجه أشكولته إليه وقصده بمعظم جنوده وقد كان على حساب ذلك من أول النهار، وأعد له هذه الأشكولة وهى معظم جنوده، فبادر إليه يوسف وصدمهم بجمعه فردهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد ووجد ريح الظفر وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل فى الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا. ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة نزل معها النصر. وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، فصدقوا الحملة، فانكشف الطاغية، ومر هاربًا منها، فلجأ إلى تل كلن يلى محلته فى نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم. وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم، وعمل المسلمون بعد ذلك من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. وابن فرذلند ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالاً محيطًا به وبأصحابه.

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية: كتابى هذا من المحلة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين، وأذاق المشركين العذاب الأليم، والخطب الجسيم. فالحمد لله على ما يسره وسنّاه من هذه الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيرة هزيمة إذفونش أصلاه الله نكال الجحيم ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتيان النهب على محلاته،

واستئصال القتل فى جميع أبطاله وأجناده، وحماته وقواده. حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها. فلله الحمد على جميل صنعه. ولم يصبنى بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة آلت لكنها قرحت بعد ذلك. وغنمتُ وظفرت.

ولما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعة تواردت عليه أنباء من قبل السفن. فلم يجد معها بدًا من سرعة الكرة. فانصرف إلى إشبيلية فأراح بظاهرها ثلاثة أيام، ونهض نحو بلاده. ومشى ابن عباد معه يومًا وليلة. فعزم عليه يوسف فى الرجوع. وكانت جراحاته تَعَبَ، وتورّم كَلْم رأسه. فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يديه إلى فرضه المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده.

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس الناس وهنئ بالفتح وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوا. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشده إياها فقرأ القارئ: «إلا تنصروه فقد نصره الله» - الآية - فقلت: بعدًا لى ولشعرى. والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره إليه وأقوم به.

***

وللشعراء فى وقعة الزلاقة وبلاء المعتمد فيها قول كثير.

لابن حمديس قصيدة أولها:

ليَهنِئ بنى الإسلام أن أبتَ سالمًا ... وغادرت انف الكفر بالذل راغما

كشفت كروبًا عن قلوب كأنما ... وضعت عليها من هواك خواتما

صبرت لحر الطعن والضرب ذائدًا ... عن الدين واستصغرت فيه العظائما

رحمناك من وقع الصوارم والقنا | فكان لنا في حفظك الله راحما
وكم شجّة في حرّ وجهك لم يزل | لك الحسن منها بالشجاعة واسما

ويقول في يوسف بن تاشفين وجنده المرابطين:

نقمت على من آسفوك بيوسف | وما زلت ممن خالف الحق ناقما
وآذنت عُمّار القفار بحربهم | فيا قرب ما شقوا إليك الحضارما
بنو الحرب غنتهم لبان تُديِّها | ولم يستطيبوا منه إلا العلاقما
يحثّون للهيجاء جُردًا سلاهبا | ويُنضون في البيداء بزلا صلادما
إذا طعنوا بالسمهرية خلتهم | ضراغم تُغرى بالقلوب أراقما
وإن كرّ منهم ذو لثام مصمم | غدا لفم الهيجاء بالسيف لاثما(١)

ويختمّ ابن حمديس القصيدة بهذه الأبيات:

حَلُمّم مراجيحًا، وجُدتم أكارمًا | وسُدتم بهاليلاً، وصُلتم ضراغما
سكنتم قلوب العارفين محبة | كما سكن الزهرُ الزكيّ الكمائما
نذرت نذورًا فاقتضاني قضاءها | إيابُك من يوم العَروبة سالما(٢)
ولما وجدتُ الوفر أعوز راحتي | سجدت لربي ثم أصبحت صائما

وللشاعر في يوم الزلاقة قصيدة أخرى مطلعها:

خلعت على بُنيّات الكروم | محاسن ما خلعن على الرسوم

(١) المرابطون كانوا يتلثمون. ويسمون الملثمين.

(٢) العروبة: يوم الجمعة. وكانت فيه وقعة الزلاقة.

ويقول فيها:

فيابن الصيد من لخم، ولخمٌ ... بدور مطالع الحسب الصميم

إذا جادوا فأنواء العطايا ... وإن حلمُوا فأطوادُ الحلوم

وأحرَم فى يمينك مشرفىّ ... أدمتَ ببذله صَون الحريم

ومعترك تلقى الفُنش فيه ... غريمًا مهلكًا نفس الغريم[1]

تستر بالظلام وفرّ خوفًا ... كروع شق سامعتى ظليم

وضاق بيوسف ذى البأس بؤسى ... فمرّر عنده حُلو النعيم

وقد نهشته حيات العوالى ... سلوا ليل السليم عن السليم

إلى أن يقول:

ولما أن أتاك بقوم عاد ... أتيتَ بصرصر الريح العقيم

وقد صرّمت نار الحرب حتى ... حكت زفراتُها قطع الجحيم

وثار بركض شُزبها قَتام ... خلعن به الصريم على الضريم[2]

وفيما أصاب المعتمد فى موقعة الزلاقة يقول الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز[3]:

جليتَ إلى الأعادى أسدَ غاب ... براثنها الأسنة والصفاح

---

(١) الفنش: ألفونس السادس قائد النصارى فى هذه الموقعة.

(٢) الصريم: القطفة من الرمل منصرمة من سائره، يعنى أن الخيل ألقت من الغبار رمالا على الرمال.

(٣) المغرب فى حلى المغرب جـ٢ - ترجمة الشاعر المذكور.

وقفت وموقفُ الهيجاء ضنك وفيه لباعك الرحب انفساح

وألسنة الأسنة قائلات إذا ظهر المؤيد لا براح

* * *

وقالوا كفّه جُرحت فقلنا أعاديه توافقها الجراح

وما أثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح

ولكن فاض سيل الجود فيها فأمسى فى جوانبها انسياح

وقد صحت وسحّت بالأمانى وفاض الجود منها والسماح

ويقول الفتح فى قلائد العقبان وهو يذكر يوم الزلاقة:

«وكان للمعتمد رحمه الله فيه ظهور، وغناء مشهور، جلا متكاثف عجاجه، وجلا الروم من غيطانه وفجاجه، بعد ما لقى حرّه، وسقى مرّه؛ وكلمَ العدو يده، وثلم عدده، وتخاذل فيه رؤساء الأندلس فلم يعمل لهم فيه سنان، ولم يكحل جفونهم من قتامه عُثان، والمعتمد يلقى أسنتهم بلبانه وتنثنى الذوابل ولا يَثنى من عنانه»(١).

(١) القلائد ص١٢.

بعد موقعة الزلاقة

فرح المسلمون بالانتصار، واستبشروا به أى استبشار. وحمدوا يوسف ابن تاشفين وأثنوا عليه، وبالغوا فى تعظيمه وتكريمه حتى عاد إلى بلاده.

واضطر المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف أن يعود إلى استنجاد يوسف مرة أخرى. فعبر يوسف البحر إلى الأندلس وعزم على خلع الطوائف جميعًا.

وكلام صاحب الروض المعطار لا يشعر بأن يوسف عاد إلى المغرب ثم عاود الأندلس، بل يوهم أن الحوادث تتابعت منذ وقعة الزلاقة حتى بلغت غايتها.

ويؤخذ من روايات عدة ومما تقتضيه الأحوال فى ذلك الحين أمور أسردها على النسق الآتى:

١ - تطلّع ابن تاشفين إلى الأندلس حين اتسع ملكه وعظم سلطانه. ويؤكد هذا ما نقله صاحب نفح الطيب عن الروض المعطار أن ملوك الندلس سمعوا بتطلع يوسف إلى بلادهم قبل الاستنجاد به. فأرسلوا إليه متوددين قائلين:

«أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز. وإن أجبنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم نُنسب إلى وهن. وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتنا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك. فأنك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة. وإن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك والسلام».

فأجاب يوسف:

«سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته تحية من سالمكم وسلتم عليكم. وإنكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة. فاستديموا وفاءنا بوفائكم. واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم. والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام».

٢ - وكره ابن تاشفين وجنده ما سمعوا من ترف ملوك الأندلس ولهوهم وما رأوا من بذخهم حين حلوا ببلادهم:

يقول المقرى فى نفح الطيب بعد ذكر نزول ابن تاشفين فى إشبيلية بعد موقعة الزلاقة وما رآه فى المدينة من الأبهة والرفاهية والترف.

«وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها وما هى عليه من النعمة والتراف. ويغرونه باتخاذ مثلها ويقولون له إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه. فأنكر يوسف هذا وقال:

«الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل - يعنى المعتمد - أنه مضيّع لما فى يديه من الملك. لأن هذه الأموال الكثيرة التى تصرف فى هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدًا. فأخذه بالظلم وإخراجه فى هذه الترهات من أفحش الاستهتار. ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجدّ همة فى ضبط بلاده وحفظها رعيته والتوفير لمصالحها»[1].

(١) نفح الطيب الجزء السادس ص ١٠٩.

ويقول المقرى:

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد فى لذاته - هل تختلف فتنقص عما هى عليه فى بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا. فقال: أفكلّ أصحابه وأنصاره على عدوه، ومنجديه على الملك، ينال حظنًا من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضا منهم عنه. فأطرق وسكت. وأقام عند المعتمد على تلك الحال أيامًا».

وفى نفح الطيب[1]:

«ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبى بكر أحد قواده المشاهير، وترك معه جيشًا يرسم غزو الفرنج. فاستراح الأمير المذكور أيامًا قلائل. ودخل بلاد الأذفونش، وأطلق الغارة، ونهب وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة، وتوغل فى البلاد، وحصل أموالا وذخائر عظيمة. ورتب رجالا وفرسانًا فى جميع ما أخذه. وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصّله. وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكايدة العدو، وملازمة الحرب والقتال، فى أضيق العيش وأنكده وملوك الندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه...».

ويقول المراكشى إن يوسف أرسل جندًا للمرابطة فى الثغور وأراد أن يكونوا عدة له حين يعزم على أخذ الأندلس.

هذا الكلام وشبهه إعراب صادق عما تقضى به تلك الأحداث والأحوال، فهؤلاء الصحراويون المسلمون الخلّص قد أطّبتهم تلك البلاد

(١) نفح الطيب جـ٦ ص ١٠٤.

الخصبة النضرة وأسخطتهم عيشة المترفين من أهل الأندلس، وافتراق كلمتهم، والقوارعُ تنتابهم والعدو بين الحين والحين يجوس خلال ديارهم، ويأخذ ما يشاء من نسلهم وحرثهم.

* * *

لهذا عزم ابن تاشفين على خلع ملوك الطوائف وتدبير أمر الأندلس وأراد أن يستوثق من حكم الشرع فيما همّ به. فاستفتى العلماء فأفتوه بجواز خلع هؤلاء الملوك المترفين جمعًا لكلمة المسلمين وتقوية لهم على الجهاد.

يقول صاحب نفح الطيب: وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف وقتالهم إن امتنعوا.

ويقول الأستاذ بلنثيا[1]:

«وكان الفقهاء يعتقدون أن سبب اضمحلال البلاد إنما هو انصراف أمراء الطوائف عن الذين وحدوده. فأملوا لهذا أن تصلح الحال إذا استعانوا بالمرابطين. وعارض الأمراء فى الاستعانة بهم ما استطاعوا المعارضة. إذ أنهم توجسنوا شرًا من مزاحمتهم لهم على السلطان فى الأندلس ولكن الغالب أن جمهور الناس ألحوا فى استقدام المرابطين. وتوجه بالفعل وفد مؤلف من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة ووزير إشبيلية أبى بكر بن زيدون إلى إفريقية وقابلوا يوسف بن تاشفين واستصرخوه لنجدة الأندلس. فاجابهم إلى ما طلبوه».

وعبر يوسف إلى إسبانيا ثلاث مرات[2] وأخذت تنعقد حوله وهو

(١) الفكر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤٨.

(٢) المرة الأولى سنة ٤٧٩ سنة الزلاقة، والثانية فى بعض الروايات سنة ٤٨١، والثالثة سنة ٤٨٤ سنة خلع ملوك الطوائف.

منصرف إلى الحرب فى الندلس شباك تدبير فى وقت واحد. الأول دبره ملوك الطوائف للإيقاع به وأذاه. وعقد أطراف الثانى الفقهاء ورموا من ورائه إلى إسلام الأندلس جملة إلى يوسف بن تاشفين. واجتهد الفقهاء فى ذلك. وسعوا بأمراء الطوائف وتكلموا مع الأمير فى خلعهم. وانتهى الأمر بالاقتناع برأيهم، وعقد النية على استنزال ملوك الطوائف الأندلسيين عن عروشهم، إذ تبين عجزهم عن مقاومة النصارى. ووجد أن جمهورًا كبيرًا يؤيده فى هذا العمل، فاستصدر من الفقهاء فتوى بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم وضرورة عزلهم.

ولم يلبث الأندلس جميعًا أن دخل فى دولة المرابطين».

أقول ليس حقًّا أن ملوك الطوائف دبروا للإيقاع بيوسف أول الأمر. فهم استنجدوه واستنصروه وفرحوا بنصرته، وتمنوا أن تدوم المودة بينه وبينهم إلى أن عزم على خلعهم.

خلع ملوك الطوائف

روى ابن خلكان بعد ذكر موقعة الزلاقة أن ابن تاشفين عاد فى العام الثانى إلى الأندلس وخرج إليه المعتمد وحاصر بعض حصون الفرنج فلم يقدر عليه فرحل عنه. وعبر على غرناطة فخرج إليه صاحبها عبد الله بن بلكين فغدر به يوسف ودخل البلد ودخل قصر عبد الله فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لا يحصى ولا يُعدّ، وأنه عاد إلى مراكش. وفى نيته أن يستولى على الأندلس، وأنه جهز الجيوش وسار إلى سبتة فأرسل قائده سير بن أبى بكر ففعل ما فعل لملوك الطوائف.

وليست الروايات وأضحة فى عود يوسف إلى الأندلس. ولا يتفق الذين رووا أنه عاد إليها على سنة هذه العودة. وليس هذا الخلاف ذا خطر فيما نحن بصدده من سيرة المعتمد بن عباد.

وفى نفح الطيب أن سير بن أبى بكر قائد المرابطين فى الأندلس أرسل إلى السلطان يوسف يخبره بإيثار ملوك الطوائف الدعة واللهو واحتمال المرابطين العناء فى جهاد العدو، وسأله رأيه فى هؤلاء الملوك، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العُدوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه. ومما قاله: «ولتبدأ بمن والى الثغور ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فولّ فيه أميرًا من عساكرك».

شرع قائد المرابطين ينزل الملوك من معاقلهم ويخرجهم من ديارهم طوعًا أو كرهًا حتى أدال منهم جميعًا. فكتب إلى ابن تاشفين يسأله أمره فى ابن عباد فأمره أن يعرض عليه النقلة إلى بر العدوة فى أهله وعشيرته. فإن أبى فليقاتله ويأخذه قسرًا كما فعل بنظرائه.

وهذا نسق الحوادث كما روى صاحب نفح الطيب[1]:

«فأول ما ابتدأ به من ملوك الأندلس بنود هود، وكانوا بروطة - وهى قلعة منيعة من عاصمات الذُّرى. وماؤها ينبع من أعلاها. وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان. فحاصرهم فلم يقدر عليها. ورحل عنها. وجنَّد أجنادًا على هيئة الفرنج وزيّهم. وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها. وكمن هو وأصحابه بقرب منها.

---

(١) جـ٦ ص ١٠٤.

فلما رآهم أهل القلعة استضعفوهم فنزلوا إليهم، ومعهم صاحب القلعة، فخرج عليه سير المذكور[1] وقبضه باليد وتسلم الحصن.

ثم نازل بنى طاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد ولحقوا ببر العُدوة، ثم نازل بنى صمادح بالمرية، ولها قلعة حصينة فحاصرهم وضيق بهم. ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غمًّا. فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها.

ثم قصد بَطَلْيوس، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدم ذكره. فحاصروه وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله.

ولم يبق له إلا المعتمد بن عباد فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ويسأله مرسومه فى ابن عباد. فكتب إليه يأمره أن يعرض عليه النقلة لبر العدوة بجميع الأهل والعشيرة. فإن رضى وإلا فحاصروه وخذه وأرسل به كسائر أصحابه.

فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف، وسأله الجواب، فلم يجب بنفى ولا إثبات.

ثم إنه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه. فأقام الحصار شهرًا ودخل البلد قهرًا».

ويقول المراكشى فى المعجب إن الفتنة بدأت فى شوال سنة ٤٨٣هـ. حين أخذ المرابطون جزيرة طريف دون مقدمة ظاهرة - ثم زحفوا إلى قرطبة فدافع عنها المأمون بن المعتمد إلى أن قتل فى صفر سنة ٤٨٤هـ.

---

(١) سير بن إبراهيم قائد جيش المرابطين.

وسيأتى أن أخذ إشبيلية كان فى رجب سنة ٤٨٤هـ. ويأتى كذلك فى أخبار الراضى بن المعتمد أن جيشًا توجه إليه وهو فى رنُدة فهزمه وقتله. وكان هذا بعد الاستيلاء على إشبيلية.

لم أجد فيما أطلعت فيه من كتب، تفصيل ما كان بين ابن عباد وابن تاشفين من مراسلة ثم قطيعة وعداوة وحرب.

ويتبين مما نقله صاحب نفح الطيب عن الفتح بن خاقان وابن اللبانة أن المعتمد حوصر فى إشبيلية وأن بعض رجال دولته مالوا مع عدوه وكادوا له وخانوه. ولم يُفجأ المعتمد بجيوش ابن تاشفين فقد بدءوا قبله بملوك الطوائف وبلغ المعتمد ما جرى عليهم. ثم أخذوا قرطبة وقتلوا ابنه المأمون. ولا نصدق ما سجع به الفتح بن خاقان فى قوله:

«فأولته جيوش أمير المسلمين ومحلاته وظاهرته فساطيطه ومظلاته، بعد ما نثرت حصونه وقلاعه... وهو ساه بروض ونسيم، لاه براح ومحيا وسيم، زاه بفتاة تنادمه، ناه عن هدم أنس هو هادمه».

وقوله: «حتى دخل البلد من واديه، وبدت من المكروه بواديه، وكرّ عليه الدهر بعواديه، وهو مستمسك بعرى ملذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه، مغتر بودائع ملكه وعواريه»[1].

لا نصدق أن المعتمد أحدق به الخطر وهو فى لعبه ولهوه، فإن عاقلا لا يفعل هذا، فضلا عن المعتمد الهمام الحازم الشجاع بطل موقعة الزلاقة الذى أحس خطر الفرنج فألبّ عليهم ملوك الأندلس واستنجد المرابطين من المغرب.

(١) القلائد ترجمة المعتمد.

لا يصدق أن المعتمد بن عباد أحيط به وهو بين الخمر والنساء، ولا ريب أن الرجل دافع عن ملكه وَسْع شجاعته وقدرته، حتى ألجئ إلى مدينته ثم إلى قصره. وقد خانه رجاله فسُقط فى يده، وحسب أنه يستعصم فى قصره إلى أن يحتال لأمره فلحقته الخيانة فيه، فخرج مُعْجلا عن درعه يلقى العدو فى غلالة.

لم يكن المعتمد كما صورته أسجاع الفتح بن خاقان، بل كان كما قال فيه ابن حمديس:

جاهدتَ فى الرحمن حقَ جهاده ... وجرى الملوك كما أردت فقصروا
فيبيت ناجودٌ وعودٌ حولهم ... ويبيت حولك شوذب وَسَنَوّر
وتفوح غالية بهم وذّ ريرة ... وهما دمٌ فى بردتيك وعِشْير

وهذا يذكر بقول أبى الطيب فى سيف الدولة وملوك مصر والعراق فى عصره:

ما الذى عنده تدار المنايا ... كالذى عنده تدار الشمول

وقوله:

ألهى الممالك عن فتح قفلت به ... شرب المدامة والأوتار والنغم

وكذلك يقول ابن حمديس فى المعتمد:

مقيم بأرض الروع حيث سماؤها ... تمور عليه من مُثارِ قساطله
كأن مقام الحرب أشهى ربوعه ... إليه، وبيضَ الهند أدنى قبائله

والمعتمد يقول فى أبيات أرسلها إلى ابن حمديس حين زاره فى أغمات:

ولو كنتُ ممن يشرب الخمر كنتها إذا نزعتْ نفسى إلى لذة الخمر

فما أحسب المعتمد كان من اللهو والترف بحيث يصفه الفتح بن خاقان.

وروى صاحب نفح الطيب أنه ما جهز بشرب الخمر منذ ولى الملك.

ونختار فى حصار المعتمد وأسره ما كتبه شاعره ابن اللبانة فى كتابه نظم السلوك فى مواعظ الملوك. ويدل كلامه أنه كان شاهد الوقعة حاضر النكبة:

«إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه، فاعلم باعتقادها، وكُشِف له عن مرادها، وحُضّ على هتك حُرَمِها، وأغرِى بسفك دمها. فأبى ذلك مجده الأثيل، ومذهبه الجميل، وما خصه الله تعالى به من حسن اليقين، وصحة الدين إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا ببغاث مستنسر وقاموا بجمع غير مستبصر. فبرز من قصره متلافيًا لأمره، عليه غلالة ترف على جسده، وسيفه يتلظى فى يده...».

يوافق ابن اللبانة غيره على أن جماعة من أصحاب المعتمد خانته وأنه فوجئ فى قصره فخرج فى غير عدة. ولعل المعتمد لم يعرض لهذه الجماعة بشر حين نمى أمرها إليه، خيفة اختلاف الكلمة وافتراق الجماعة فى وقت الشدة.

ولا نجد فى كلام ابن اللبانة ذكر لهو المعتمد وغفلته والنذر تحيط به. وهو قول باطل سجع به الفتح كسجع الكهان.

ثم يقول ابن اللبانة:

«فلقى على باب من أبواب المدينة فارسًا مشهورًا بنجدة، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته، وعصمه الله تعالى منه. وصب هو سيفه على عاتق

الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعًا سريعًا. فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار تساقطوا منها، وبعدما أمسكوا الأبواب تخلوا عنها، وأخذوا على غير طريق، وهوت بهم ريح الهيبة فى مكان سحيق. فظننا أن البلد من أقذائه قد صفا، وثوب العصمة علينا قد ضفا، إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من شهر رجب[1]، فعظم الخطب فى الأمر الواقع واتسع الخرق على الواقع. ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وترامیه على الموت بنفسهن ما لا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه. فشنت الغارة فى البلد، ولم يبق فيه على سبد ولا لبد. وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم. وكشفت وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى. ورحل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع ماله، لم يصحب معه بلغة زاد، ولا بغية مراد. فأمضيت عزيمتى فى اتباعه فوصلت إليه بأغمات». اهـ.

ويوافق الفتح ابن اللبانة على غدر جماعة من أصحاب المعتمد وعلى أن أعداءه فجئوه داخلين من أحد أبواب القصر، فخرج إليهم على غير عدة فهزمهم وأغلق الباب واعتصم بالقصر. ويسمى الباب باب الفرج ويقول إن الداخلين كانوا من المرابطين.

وهذه طائفة من أسجاع الفتح فى هذا الشأن:

«وحين اشتد حصاره وعجز عن المدافعة أنصاره، ودلس عليه ولاته، وكثرت أداؤه وعلاته، فتح باب الفرج وقد لفح شواظ الهرج. فدخلت عليه

(١) يروى ابن خلكان أن المرابطين هجموا على إشبيلية يوم الأحد العشرين من رجب سنة ٤٨٤هـ ويقول المراكشى فى الثلاثاء منتصف رجب كان الهجوم الأول، وكان الهجوم الثانى فى ٢٦ رجب.

من المرابطين زمرة، واشتعلت من التغلب جمرة، تأجج اضطرامها، وسهل بها إيقاد الفتنة وإضرامها. وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً من مفاضته، جامحًا كالمهر قبل رياضته. فلحق أوائلهم عند الباب المذكور، وقد انتشروا فى جنباته، وظهروا على البلد من أكثر جهاته، وسسفه فى يده يتلمظ للطلى والهامن ويعد بانفراج ذلك الاستبهام. فرماه أحد الداخلين برمح تخطاه وجاوز مطاه. فبادره بضربة أذهبت نفسه وأغربت شمسه. ولقى ثانيًا فضربه وقصمه وخاض حشا ذلك الداء وحسمه. فأجلوا عنه وولوا فرارًا منه. فأمر بالباب فسد وبنى منه ما هد.

ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها وأبعد الله عنه الملامة ونفاها. وفى ذلك يقول عند الملامة ونفاها. وفى ذلك يقول عند ما خلع، وأودع منك المكروه ما أودع:

إن يسلب القوم العدى ... ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع

قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصننى الدروع

وبرزت ليس سوى القميص ... من الحشا شىء دفوع

أجلى تأخر لم يكن ... بهواى ذلى والخضوع

ما سرت قط إلى القتال ... وكان من أملى الرجوع

شيم الألى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع»

ويؤخذ من كلام الفتح فيما بعد أن المغيرين دخلوا البلد مرة أخرى من الوادى، أى من جهة نهر إشبيلية المسمى الوادى الكبير، وأن المعتمد استبسل

فى الحرب حتى هزم المغيرين وألجأهم إلى النهر فغرق فيه من غرق. فالبلد دخل من أحد الأبواب فحارب المعتمد حتى رد الداخلين وسد الباب، ثم دخل من الوادى فرد المعتمد أعداءه كذلك. يقول الفتح بعد ذكر الوقعة الثانية:

«ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله، وذهاب ملكه وارتحاله. وعاد إلى القصر واستمسك فيه يومه وليلته مانعًا لحوزته، دافعًا للذل عن عزتهز وقد عزم على أفظع أمر، قائلاً بيدى لا بيد عمرو. ثم صرفه تقاه عما نواه (يعنى أنه هم بالانتحار) فنزل من القصر بالقسر إلى قبضة الأسر. فقيد للحين وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين...

ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعد ما ضاق منهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتى الوادى وبكوا بدموع كالغوادى. فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم».

ويقول المراكشى: إن دخول جماعة من الباب ودفع المعتمد إياهم كان الثلاثاء منتصف رجب. ويقول إن الجيوش دهمت المدينة عصر ذلك اليوم من البر ومن الوادى، ودام القتال أيامًا إلى أن جاء قائد المرابطين سير بن أبى بكر بن تاشفين، بعساكر متظاهرة، وحشود منك الرعية متوافرة. والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع، وخالط قلوبهم الهلع. يقطعون السبل سباحة، ويعبرون النهر سباحة. ويتولجون مجارى الأقذار، ويترامون من شرفات الأسوار حرصًا على الحياة. والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة

المذكورة. وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى. فيه حم الأمر الواقع، واتسع الخرق على الراقع».

ويستمر المراكشى بعد فى وصفه ناقلاً كلام الفتح الذى تقدم.

ثم يقول:

«وأجبر على مخاطبة ابنه المعتد بالله والراضى باللهز وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاءا أن يمتنعا بها لم يصل أحد إليهما. أحد الحضنين يسمى رندة والآخر مارتلة. فكتب رحمه الله وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما. فأنفا من الذل، وأبيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما. ثم عطفتهما عواطف الرحمة، ونظراً فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل. فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه. ونزلا من الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة. فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه. وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده».

والأبيات التى رواها الفتح فيما تقدم يزيد عليها المراكشى فى روايته ثلاثة أبيات قبلها:

لما تماسكت الدموع ونهنه القلب الصديع

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع

ووقف الشاعر الوفى أبو بكر بن اللبانة الذى أخلص لصاحبه فى محنته، كما نعم بعطاياه فى دولته. وقف الشاعر الوفى يرى القيامة ويشهد الحشر فقال:

تبكى السماء بمزن رائح غاد ... على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها ... وكانت الأرض منها ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ ... فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم لتسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالواد
وأنت يا فارس الخيل التى جعلت ... تختال فى عدد منهم وأعداد
ألق السلاح وخل المشرفى فقد ... أصبحت فى لهوات الضيغم العادى

إلى أن يقول:

نسبت إلا غداة النهر كونهم ... فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
خط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها ... كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

سارت السفن بالمعتمد وآله وأتباعه فى نهر الوادى الكبير ثم فى بحر الظلمات حتى أرست على ساحل المغرب.

ولما خرج من السفين الأمير الجواد الأبى الصنديد، اجتمع إليه السؤال يستجدون ويلحفون. جاءه الحصرى الشاعر فرفع إليها أشعارًا قديمة كان قد مدحه بها، وقصيدة استجدها، يقول المراكشى فى كتاب المعجب:

«ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم ما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً. فطبع عليها، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظى، ووجه بها إليه. فلم يجاوبه على القطعة على سهولة الشعر على خاطره، وخفته عليه - كان هذا الرجل، أعنى الحصرى الأعمى، أسرع الناس فى الشعر خاطرًا إلا أنه كان قليل الجيد منه - فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها:

قل من قد جمع العلم ... وما أحصى صوابه

كان فى الصرة شعر ... فتنظرنا جوابه

قد أثبتناك فهلا ... جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعائف الشعراء وملحفى أهل الكدية ما صنع المعتمد رحمة الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريقن وقصدوه من كل فج عميق. فقال فى ذلك رحمه الله:

شعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب

سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق منهم فاعجب

لولا الحياء وعزة لخمية ... طى الحشا ساواهم فى المطلب

قد كـان إن سئل الندى يـجزل وإن نادى الصـريخ ببـابه اركب يركب

وأقام المعتمد بطنجة أيامًا على الحال التى تقدم ذكرها ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهرًا إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات».

وفى ديوان المعتمد أنه عتب على ابنه الرشيد عتبًا شديدًا وهمًا فى الطريق من مكناسة إلى أغمات فكتب الرشيد إليه:

يا حليف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح

من تمام النعمى على التماحى لمحة من جبينك الوضاح

قد غنينا ببشره وسناه عن ضياء الصباح والمصباح

فأجاب المعتمد:

كنت حلف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح

إذ يمينى للبذل يوم العطايا ولقبض الأرواح يوم الكفاح

شمالى لقبض كل عنان يقحم الخيل فى مجال الرماح

وأنا اليوم رهن أسر وفقر مستباح الحمى مهيض الجناح

لا أجيب الصريخ إن فزع الناس ولا المعتفين يوم السماح[1]

عاد بشرى الذى عهدت عبوسا شغلتنى الأشجان عن أفراحى

فالتماحى إلى العيون كريه ولقد كان ترفة اللماح

(١) فى الديوان: إن حضر الناس وأحسبها تحريفًا.

المعتمد فى أغمات

ومدينة أغمات كما يقول ياقوت:

«مدينتان متقابلتان... كثيرة الخير... وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظًا ولا خصبًا منها تجمع بين فواكه الصرود والجروم[1]...».

وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ وهى فى سفح جبل هناك. كانت أغمات كبرى مدن الإقليم قبل إنشاء مدينة مراكش. وفقدت مكانتها وقل عمرانها حينما أنشئت مراكش سنة ٤٥٤هـ.

وقد استولى عليها المرابطون سنة ٤٤٩هـ. ونفوا إليها المعتمد سنة ٤٨٤هـ. وبها أطلال مدرسة قديمة ومقابر كثيرة - وقبر المعتمد هناك.

وهى اليوم مزارع وبساتين واسعة كثيرة الثمار، عذبة المياه وارفة الظلال.

بقى البطل ابن عباد فى أغمات أربع سنوات حتى أنقذته المنية من هذه البلية. وقد ضيق عليه وأثقلت القيود على رجليه حين ثار ابنه عبد الجبار فى الأندلس. وقد جزع المعتمد لهذا وتوقع أن يؤخذ بجريرة ابنه أو يخشى فراره من معتقله.

---

(١) الصرود والجروم الحر والبرد. الأولى جمع صرد والثانية جمع جرم. وكلا اللفظين فارسى معرب.

ويقول الفتح:

«وقال لى من أثقه: لما ثار ابنه حيث ثار وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار جزع جزعًا مفرطًا وعلم أنه قد صار فى أنشوطة الشر متورطًا، وجعل يشتكى من فعله، ويتكلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول عرض بى للمحن، ورضى لى أن أمتحن. ووالله ما أبكى إلا انكشاف من أتخلفه بعدى ويتحيفه بعدى»(١).

ويقول الفتح:

«وأقام بالعدوة برهة لا يروع له سرب وإن لم يكن آمنًا، ولا يثور له كرب وإن كان فى ضلوعه كامنًا، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش».

وله فى أسره وبؤسه وعض الأداهم فى رجليه ومنظر بناته فى الأطمار عليهن الذلة بعد العزة وهن يغزلن ليحصلن القوت - له فى هذه المرائى الأليمة والأحوال الحزينة، أشعار ترقق القلوب القاسية وتسيل العيون الجامدة. وإليك طرفًا منها:

قال يذكر قصوره التى أشاد بناءها وافتن فى تزيينها، وعمر بالسرور أرجاءها، وحمد فى ظل النعيم صباحها ومساءها:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكى عليه منبر وسرير

وتنديه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزير

مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليوم وهو نفور

برأى من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهور

(١) نفح الطيب جـ٥.

أذل بنى مـــاء الســـمـــاء زمـــانهم ... وذل بنى مـاء الســمـاء كـبـيـر[1]

فـيـا ليت شـعـرى هل أبـيتن ليلة ... أمــامى وخلفى روضـــة وغـــدير

بمنبـتـســة الزيتـون مـورقـة العـلا ... يغـنى حـــمـــام أو ترن طيـــور

بزاهرها الســامى الذرى جاده الحـيا ... تشــيـر الثــريا نحــونا ونشـيــر

ويلحظنــا الزاهى وسـعــد سـعــوده ... غـيـورين والصـب المحب غـيـور

تراه عـــســيــراً لا يســيــراً مناله ... ألا كل مـــا شـاء الإله يســيــر[2]

وقال:

بكى المبـــارك فى إثر ابـن عـبـــاد ... بكـى على إثر غـــزلان وآســـاد

بكت ثرياه لا غـــمت كـواكـبـهـا ... بمثل نـوء الثـــريا الرائـح الغـــادى

بكى الوحـيد، بكى الزاهى وقـبتـه ... والنهـــر والتـــاج، كـل ذله بادى

ودخل عليه بناته يوم عـيد وقد حالت حالهن وذوت نـضرتهن وكن قد اضطررن إلى الغزل لتـحصيل قوتهـن. وقيل غزلن لصاحب شـرطة كان فى خدمة أبيهن: عيد بأية حال عدت يا عبد - فقال المعتمد:

فيمـا مضى كنت بالأعيـاد مسروراً ... فسـاءك العيد فـى أغمات مـأسورا

ترى بناتـك فى الأطمـار جـــائعـة ... يغـزلن للناس مـا يملكن قطمـيـرا

برزن نحـوك للتـــسليم خـاشـعـة ... أبصـارهن حـسـيـرات مكاسـيـرا

يطأن فى الطيـن والأقدام حـافـيـة ... كـأنهـــا لم تطأ مـسكًا وكـــافـورا

(١) ينتسب المعتمد إلى لخم قوم المناذرة ملوك الحيرة وكان من ملوكهم ماء السماء.

(٢) الزاهر والزاهى والثريا والمسعد قصور فى إشبيلية.

لا خد إلا ويشكو الحدب ظاهره وليس إلا مع الأنفاس ممطورا

قد كان دهركن إن تأمرهن ممتثلاً فردك الدهر منهيًا ومأمورا

من بات بعدك فى ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

ودخل عليه ابنه أبو هاشم، هذا الصبى الذى ذكره حين احتدام القتال فى موقعة الزلاقة، فقال كما تقدم:

أبا هاشم هشمتى الشفار فلله صبرى لذاك الأوزار

ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للفرار

دخل أبو هاشم على أبيه أسيرًا سجينًا «والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود» فقال:

قيدى! أما تعلمنى مسلمًا أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم قد أكلته. لا تهشم الأعظما

يبصرنى فيك أبو هاشم فينثى والقلب قد هشما

ارحم طفيلا طائشًا لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما

منهن منك يفهم شيئًا فقد خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهمط شيئا فما يفتح إلا لرضاع فما

ومما قاله فى التوجع من أسره وقيده:

غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان

قد كان كالثعبان رمحك فى الورى فغدا عليك القيد كالثعبان

متمرداً يحميك كل تمرد ... متعطفاً لا رحمة للعانى

قلبى إلى الرحمن يشكو بثه ... ما خاب من يشكو إلى الرحمن

وقال:

أنباء أسرك قد طبقن آفاتا ... بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا

فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة ... وأغرق الدمع آماقا وأحداقا

أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب ... للغالبين وللسباق سباقا

قلت: الخطوب أذاقتنى طوارقها ... وكان غربى إلا الأعداء طراقا

متى رأيت صروف الدهر تاركة ... إذا انبرت، لذوى الأخطار أرماقا

ومر عليه سرب قطا وهو فى معتقله. وأنقل هنا كلمات الفتح بن خاقان فى تصوير هذه الحال:

«ومر عليه فى موضع اعتقاله سرب قطا لم يقلق لها جناح ولا تعلق بها من الأيام جناح. ولا عاقها عن أفراخها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا الأراك، وهى تمرح فى الجو وتسرح فى مواقع النو. فتنكد بما هو فيه من الوثاق وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجده وخبله، وفكر فى بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه، وحبور حضرنه وشهدنه، فقال:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بى ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل

ولم تك، والله المعيد، خسادة ... ولكن حنيناً أن شكلى لها شكل

فأسرح لا شملى صديعن ولا الحشا ... وجيع، ولا عيناى يبكيهما ثكل

هنيئًا لها، إذ لم يفرق جميعها ... ولا ذاق عنها البعد من أهلها أهل

وإذ لم تبت مثلى تطير قلوبها ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل

وما ذاك مما يعتريه وإنما ... وصفت الذى فى جبلة الخلق من قبل

لنفسى إلى لقيا الحمام تشوق ... سواى بحب العيش فى ساقه حجل

ألا عصم الله القطا فى فراخها ... فإن فراخى خانها الماء والظل

وسجن جماعة من أهل فاس فى أغمات فرغبوا إلى السجان أن ييسر لهم لقاء المعتمد وكان يتسلى بمجالستهم ويستريح إلى محادثتهم إلى أن أطلقوا من سجنهم فدخلوا عليه يودعونه - فقال:

أما لانسكاب الدمع فى الخد راحة ... لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد

هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى ... بما منه قد عافاكم الصمد الفرد

تخلصتم من سجن أغمات والتنوت ... على قيود لم يحن فكها بعد

منك الدهم، أما خلقها فأساود ... تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد

فهنيتم النعمى ودامت لكلكم ... سعادته، إن كان قد خانى سعد

خرجتم جماعات، وخلقت واحدًا ... ولله فى أمرى وأمركم الحمد

انظر كيف رقت نفسهن وتمنى لكل خلق أن يعيش حرًا سعيدًا. فهو يغبط القطا على حريتها ويدعو لها أن يعصمها الله فى فراخها. وهو يغبط من خلى سبيلهم، ويدعو لهم أن تدوم لهم السعادة التى حرمها، ويسألهم الدعاء للخلاص من هذا البلاء.

وتأمل فى هذه الأبيات التى أنشأها حين طلب إليه رجل أن يزوده بشىء من شعره:

يا سائل الشعر يجتاب الفلاة به   تزويدك الشعر لا يعنى عن السغب
زاو منك الريح لا رى ولا شبع   غدا له مؤثرًا ذو اللب والأدب
أصبحت صفرًا يدى مما تجود به   ما أعجب الحادث المقدور فى رجب[1]
ذل وفقر أزالا عزة وغنى   نعمى الليالى من البلوى على كثب
قد كان يستلب الجبار مهجته   بطشى ويحيا قتيل الفقر فى طلبى
والملك يحرسه فى ظل واهبه   غلب من العجم أو شم منك العرب
فحين شاء الذى آتاه ينزعه   لم يجد شيئًا قراع السمر والقضب

ويروى الفتح بن خاقان أن المعتمد لما بلغته ابنه عبد الجبار جزع وأشفق أن يؤخذ بجريرة ولد. ولكن أخبار هذه الثورة فيما يبدو أعادت إلى نفسه ذكرى القوة والسلطان، وأثارت فيه كوامن العزة والإقدام، ولوحت له بأمل ضئيل من خلاصة ورجوع ملكه إليه.

يروى الفتح عمن يثق به بعد أن ذكر جزع المعتمد لثورة ابنه:

«ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته، وظللته مسرته. ورأيته قد استجمع، وتشوف إلى السماء وتطلع. فعلمت أنه رجا عودة إلى سلطانة، وأوبة إلى أوطانة. فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة حائرة حتى قال:

كذا يهلك السيف فى جفنه   إلى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله   ولم تروه من نجيع يمينى

---

(١) حلت به المصيبة فى رجب سنة ٤٨٤.

كــذا يمنع الـطرف علك الشكيم ... مــرتقــبًــا غــرة فى كــمــين

كــأن الفــوارس فـــيــه ليــوث ... تراعى فــرائـســهــا فى عــرين

ألا شـــــرف يرحم المشـــرفى ... مما بـه من شــمـــات الوتـين[1]

ألا كــرم ينعـش الســمـــهـرى ... ويشــفـــيــه مـن كل داء دفــين

ألا حـنة لابـن مـــــحـنيـــــة ... شـديد الحنيـن ضـعيف الأنين[2]

يؤمـل من صـــدرها ضـــمـــة ... تبــوئه صـدر كــبـر مـعــين[3]

تأمل نفثات البطولة المصفـدة، والعزة المقيدة، والهمة الحبيسة، والسيرة الماجدة، يحدها السجن، ويضيق عليها الأسر.

وليس بعيدًا أن يكون الرجـل على شدة محنته، وعظم نكبتـه، قد أسر فى نفسه أملاً وأضمر فى الحادثات رجاء. كما قال:

وطن على الكره وارقب إثره فـرجًا ... واسـتـغـفـر الله تغم منه غـفـرانا

وكان شعراؤه يبعثون فى نفسه الأمل كما قال ابن اللبانة:

رويدك ســوف توســعى ســرورًا ... إذا عـــاد ارتقـــاؤك للســـرير

وســوف تحلنى رتب المـعـــالى ... غــداة تحل فى تـلك القــصــور

تزيـد علـى ابن مــــروان عـطاء ... بهـــا، وأزيـد ثم علـى جــرير

تأهـب أن تعـــود إلـى طلـوع ... فليـس الخسـف ملتـزم البـدور

(١) شمت الوتين بسيف المعتمد إذ عجز عن قطعه بعد أن قطع ما قطع منه فى الحرب.

(٢) ابن محنية: السهم.

(٣) فى رواية: صدر كفر معين.

وقال فى محبسه:

قبح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيسًا نزعا

قد هوى ظلمًا بمن عاداته ... أن ينادى كل من يهوى: لعا

من إذا قيل الخنى صم، وإن ... نطق العافون همسًا سمعا

قل لمن يطمع فى نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا

راح لا يملك إلا دعوة ... جبر الله العفاه الضيعا

وقد أجمل وصف الدنيا بعد أن عرف صروفها، وتقلبت على عينيه خطوبها فى هذه الأبيات:

أرى الدنيا الدنية لا تواتى ... فأجمل فى التصرف والطلاب

ولا يغررك منها حسن برد ... له علمان من ذهب الذهاب

فأولها رجاء من سراب ... وآخرها رداء منك تراب

على أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلة وقرطبة وبطل الزلاقة وأسير أغمات، كان يلجأ فى مصيبته إلى الرحمن، ويجد فى الإيمان به كل سلوان، ويتعزى ويتصبر، ويعلل النفس بالقضاء والقدر، ويتسلى بصروف الدهر وغيره، وخطوبه وعبره.. اقرأ قوله:

اقنع بحظك فى دنياك ما كانا ... وعز نفسك إن فارقت أوطانا

فى الله من كل مفقود مضى، عوض ... فأشعر النفس سلوانًا وإيمانًا

أكلما سنحت ذكرى طربت لها ... مجت دموعك فى خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك شبيهك قد ... بزته سود خطوب الدهر سلطانا

وطن على الكره وارقب إثره فرجا ... واستغفر الله تغم منه غفرانا

ويقول:

تؤمل للنفس الشجية راحة ... وتأبى الخطوب السنود إلا تماديا

لياليك فى زاهيك أصفى صحبتها ... كذا صحبت قبلى الملوك الليالیا

نعيم وبؤس، ذا لذلك ناسخ ... وبعدهما نسخ الليالى الأمانيا

عيشة المعتمد فى أغمات

مر بنا ما مر من أحوال المعتمد فى شقائه وبؤسه، وما لقى من غير الأيام فى نكبته ومحنتهن وحسب القارئ ما مر به؛ ولكن لعل قارئًا يسأل كيف كانت عيشة المعتمد؟ لا ريب أنها كانت عيشة ضنكًا ولكن ما كان مبلغها من الضيق والحرمان؟

مر بنا أن المعتمد سأل حواء بنت تاشفين خباء فاعتذرت إليه أن ليس عندها خباء. ومر بنا أن بناته غزلن للقوت، وان ابنًا له عمل فى حانوت صائغ ومر به ابن اللبانة فأنشأ قصيدته الباكية التى أثبت آنفًا.

ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٨٤:

«وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن كان قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده؛ إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة. وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كان بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقها على أنفسهن. وذكر ذلك المعتمد فى أبيات ترد عند ذكر وفاته فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدره».

كل هذه الأخبار تدل على بؤس المعتمد وضيق عيشتهن ولكنا نجد فى الأخبار كذلك أنه أعطى الحصرى الشاعر حين قصده فى طنجة وهو فى طريقه إلى المنفى، وأنه أرسل ابن اللبانة حين أزمع السفر من أغمات هدية ذات قيمة فاعتذر ابن اللبانة وردها. ونقرأ كذلك أن ابن حمديس الشاعر زاره فحجبه الخدم وأنشأ المعتمد أبياتًا يعتذر فيها لابن حمديس ويذكر غباوة خدمه وجهلهم بعد أن كان خدمه ما كانوا وهو فى ملكه ودولته.

والجمع بين هذه الأخبار المختلفة أن الرجل عاش فى شقاء وبؤس وضيق، لا ريب فى هذا، : ولا يبعد أن بعض أقاربه أو أصهاره أو أنصاره الذين سلموا منك النكبة أمدوه بما يقيم أوده، ويحفظ كرامته؛ وقد قصده الشعراء ووفوا له فى شدته وكربته فليس بعيدًا أن يكون غيرهم قصده أو أرسل إليه ما يخفف عنه شدة الأسر، وقسوة الفاقة، فصلحت حاله أحيانًا. ولا أقول إن المعتمد ادخر بعض جواهره ونفائسه فأنفق منها فلو كان عنده بقية من الأعلاق ما غزلت بناته للناس ولا نفخ ابنه فى كير صائغ.

أخلاق المعتمد

أسلفنا قول المراكشى:

«وكان فيه منك الفضائل الذاتية ما لا يكاد يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة. وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم.

وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا إحداها بل أكبرها».

وإن يكن فى هذا القول غلو فهو دليل على مكانة المعتمد عند المؤرخين. فى عصره والعصور التالية. ويتبين من الفصول السابقة كثير من أخلاق المعتمد ابن عباد. فالقارئ يرى سيرته فى نعيمه وبؤسه، تبين عن أخلاق كريمة وشمائل شريفة.

وفى هذا الفصل جمع ما تفرق فى الفصول الأخرى، وإجمال ما فصل فيها من شمائل الرجل ومناقبه.

١ - لا ريب أن المعتمد كان أميرًا جوادًا يرتاح إلى الجود، ويلذ العطاء، ويتوسل إلى مواساة أصحابه وقصاده وسائل شتى، ويفتن فى الإحسان إليهم كما يقول أبو الطيب فى بى شجاع فاتك:

لطفت رأيك فى برى وتكرمنى إن الكريم على العلياء يحتال

ولهذا قصده الشعراء والكتاب من كل صوب.

ولم تفارقه الأريحة للعطاء، والسماح بالمال فى أيام بؤسه وفقره، وهو أحوج إلى ما فى يده. فقد أعطى الحصرى الشاعر حين لقيه فى طنجة وهو أسير يسار به إلى معتقله. وأرسل إلى شاعره الوفى أبى بكر الوانى هبة حين زاره فى أغمات فردها الشاعر.

فقد صدق المعتمد حين قال عن نفسه:

وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر

وقد تناهت يدى عن كأسها غضب ومجت الأذن أيضًا نغمة الوتر

حتى أملك هذى ما تجود به وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر

فهاتها خلعا أرضى السماح بها محفوفة فى أكف الشرب بالبدر

٢ - وكان المعتمد على الله شجاعًا مقدامًا، يخوض المعارك ويقدم على الأهوال، أبيًا يؤثر الموت على الهوان.

وحسبنا بلاؤه فى موقعة الزلاقة، وبسالته فى الدفاع عن إشبيلية، وخروجه حاسرًا حين فجأه العدو فى بلده. وهى الحال التى وصفها فى الأبيات:

إن تستلب منى الدنيا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

وقد تقدمت الأبيات.

٣ - وكان حسن المعاشرة، لين العريكة، يكرم أصحابه، ويتواضع لهم. وقد تقدمت سيرته مع أصحابه فى مخاطبتهم مخاطبة الأصدقاء لا الرعية، ومداعبتهم، والتلطف معهم.

وحسبنا قصائده فى ابن زيدون. وقد أمر المعتضد أن يرفع مجلس المعتمد على مجلس المعتمد على مجلس ابن زيدون فكتب المعتمد:

أيها المنحط عنى مجلسًا وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرؤس

وهكذا تجده فيما كتب لشعرائه وأصدقائه وقصاده.

وسيأتى اعتذاره لابن حمديس حينما زاره فى أغمات فقال له الخادم إن المعتمد ليس فى الدار، وما كان بينه وبين ابن اللبانة من شعر هناك. وإن يقل هذه حاله فى أسره وبؤسه أقل بل هذا كان ديدنه وهو فى سلطانه ودولته. فما كذب المعتمد حين قال لابن عمار:

مـــتى تلقنى تـلق الذى قـــد بلوته صفوحًا عن الجـانى رءوفًا على الصحب

سأوليك منى ما عـهدت من الرضا وأصفح عمـا كان، إن كان، من ذنب

فـما أشـعـر الرحمن قـلبى قسـوة ولا صار نسـيان الأذمة من شـعبى

وأما قتله ابن عمـار فهو خلاف ما عهد أصحاب المعـتمد منه، ورجوه عنده. وله سبب ذكرته فيما تقدم فى الـكلام عن ابن عمار، ولا يقتل المعتمد صاحبه بعد غلوه فى محبته ومودته إلا لأمر أخرج المعتمد عن طبعه، وحمله على قتل صديقه بيده.

٤ - وكان وفـيًا لأصحابه، وحـسبنا ما قـدمنا فى حديث ابن زيدون، وقد صدق المعتمد فى قوله جوابًا لمن أغروه بالفتك به:

أنى رجـــوتم غـــدر مـن جـــربتم منـه الوفـــاء وظلـم من لا يظـلم

أنا ذاكم لا البـغـى يثـمـر غـرسـه عندى ولا مـبـنى الصنيـعـــة يثلم

٥ - وكان المعتمد صبوراً. نزل به من الكوارث ما تحدث به الناس قرونًا وما زالوا يتحدثون به ويرثون لمن نزلت به هذه المصائب. ونجد المعتمد على ما أصابه بنيه وبناته ذا طبع شاعر ينظم الشعر فى طريقه إلى المنفى، يذكر شعراء طنجة الذى ألحفوا فى سؤاله، ويعاتب الحصرى على أنه لم يحب عن شعره، ويجيب ابن حـمديس وابن اللبـانة عمـا ينظمان له من أبيات، ويـرثى بنيه، ويصف بناته فى الأسر والذل، ويذكر عض القيـود بساقيه ويودع السجناء من أهل فاس حين أطلقوا من السجن، وهلم جرا.

ولا ينظم الشـعر فى هذه الأحـوال، إلا صابر على باواه، جلـد فيـما دهاه.

يقول أبو الطيب:

ولكن حمى الشعر إلا القليل هم حمى النوم إلا غرارا

ويقول المعرى:

ولكن القريض له مغان وأولاها به الفكر الحلى

وإن قيل إن الحزن والجزع أنطقاه بالشعر فبعض هذا الشعر ينطق به الحزن والجزع ولكن بعضه كمحاورة الشعراء لا يدل على حزن وجزع بل على تعز وتجلد.

٦ - وكان ابن عباد يتعرف أحوال رعيته، ويلاطفهم ويمازحهم.

اقرأ هاتين القصتين كما رواهما نفح الطيب:

«مر المعتمد يومًا مع وزيره ابن عمار بباب شيخ كبير كثير التنذير والفكاهة يمزح ذلك بإغراق يضحك الثكلى. فقال لابن عمار: تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه. فضربا عليه الباب.

فقال: من هذا؟ فقال ابن عباد: إنسان يرغب أن تصلح له الفتيلة. فقال: لو ضرب ابن عباد بابى فى هذا الوقت ما فتحت له. فقال: فإنى ابن عباد فقال: مصفوع ألف صفعة.

فضحك ابن عباد حتى سقط على الأرض وقال لوزيره: امض بنا قبل أن يتعدى الصفع منك القول إلى الفعل. فهذا شيخ ركيك.

ولما كان من غد تلك الليلة وجه له ألف درهم. وقال لموصلها: قل له هذه من الألف صفعة التى كانت البارحة».

والقصة الثانية:

«كان في زمان المعتمد السارق المشهور بالبازى الأشهب. وكان له فى السرقة كل غريبة. وكان مسلطًا على أهل البادية. وبلغ من سرقته أنه سرق وهو مصاوب. لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا إليه. فبينما هو على خشيته على تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته وبناته، وجعلن يبكين حوله ويقلن: لمن تتركنا. نضيع بعدك. وإذا ببدوى على بغل وتحته حمل ثياب وأسياب. فصاح عليه: يا سيدى انظر فى أية حالة أنا. ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك. قال: وما هى؟ قال: انظر إلى تلك البئر. لما أرهقنى الشرط رميت فيها مائة دينار. فعسى تحتال فى إخراجها. وهذه زوجتى وبناتى يمسكن بغلك، خلال ما تخرجها. فعمد البدوى إلى حبل ودلى نفسه فى البئر، بعد ما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها.

فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل وبقى حائرًا يصيح. وأخذت ما كان على البغل مع بناتها وفرت به...

ورفعت هذه القصة إلى ابن عباد فتعجب منها وأمر بإحضار البازى الأشهب وقال له: كيف فعلت هذا مع أنك فى قبضة الهلكة؟ فقال له: يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة خليت ملكك واشتغلت بها. فلعته وضحك منه ثم قال له:

إنْ سرحتك وأحسنت إليك، وأجريت عليك رزقًا يقلك أتتوب من هذه الصنعة الذميمة؟

فقال: يا مولاى وكيف لا أقبل التوبة وهى تخلصنى من القتل.

فعاهده وقدمه على رجال أنجاد. وصار من جملة أحواز المدينة».

هاتان قصتان لهما دلالتهما على صلة الرجل برعيتهن ومعرفة أحوالهم، وتفكهه معهم.

* * *

المعتمدة فى إساره
والأوفياء من الشعراء وغيرهم

١

أبو بكر محمد بن عيسى الدانى
المعروف بابن اللبانة

وفاء ابن اللبـانة للمعتمد بن عـباد، مثل كريم من الوفـاء للصديق فى نكبته، ومواساته فى مصيبته.

اتصل الشاعر ببنى عباد ومدحهم منذ أيام المعـتضد أبى المعتمد. وحمد صحبتهم، وشكر نعمتهم، وكتب فى تاريخهم كتاب "الاعتماد فى أخبار بنى عباد" وكـتب بعد ما حلت بهم الفاجعـة: "نظم السلوك فى مواعظ الملوك" يبين العبرة والموعظة فيما أصاب هؤلاء الأمراء الأدباء الكرماء.

وأنقل هنا كلمـات للفتح بن خاقـان فى كتابه "قـلائد العقـيان" فيـها إجمال حال الشاعر مع المعتمد بن عباد فى دولته ومحنته:

"كان المعتمد على الله يميزه بالتـقريب، ويستعذب ما يأتى به من النادر الغريب. ويوليه إنعامًا وإحسانًا، ويريه الزمان كله آذارًا ونيسان[1]، فلما نبت صعـاده، وأعوزه من دهره إسعـاده، ورحل به إلى المغرب، وحل فيـه محل النازح المغتـرب، وغدرته الأيام غـدر أهل خراسان بقـتيبـة، وفى له أبو بكر بالرحلة إليه وفاء الظعينة لعتيبة. وتراسلا هناك بأشعار شفى بها المعتمد نفسه،

(١) آذار ونيسان من شهور الربيع - أى يجعل زمانه كله ربيعًا.

واستوفى سلوه وأنسه. وشكر له ما ناله من مسلاته، وحمد عقد موالاته. وصار له بذلك حق مشهور، وفخر لا تبليه الدهور.

ولست فى حاجة إلى الإطناب فى وفاء هذا الرجل الكريم فهذه نبذ من أنبائه، تدل على عظيم وفائه:

شهد هول الواقعة فى إشبيلية ورأى رأى العين المعتمد وآله يؤسرون. وأنشأ قصيدته التى قدمت:

تبكى السماء بمزن رائح غادى

على البهاليل من أبناء عباد

يقول الشاعر: "ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع ماله. لم يصحب معه بلغة زاد، ولا بغية مراد. فأمضيت عزيمتى فى أتباعه. فوصلت إليه بأغمات عقب ثقاف استنفذه الله منه[1]. فذكرت به شعراً كان لى فى صديق اتفق له مثل ذلك فى الشهر بعينه من العام الماضى. وهو الأمير عبد الله بان الصفار. وهو:

لم أقل فى الثقاف كان ثقافا

كنت قلبا به وكان شغافا...

وجرت بينى وبينه مخاطبات ألذ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشفات الحبيب، وأدل على السماح، من فجر الصباح".

فهذا شاعر وفى يذهب فى إثر صاحبه من إشبيلية فى الأندلس إلى

(١) الثقاف: القيد والأغلال التى يصفد بها السجين.

أغمات فى المغرب، وهو لا يـرجو خيراً ولا يأمل مغنمًا. بل يحـتمل المشقة ويركب الخطر حفاظًا على الذمام، ووفاء بالعهد، ومواساة للصديق.

ويقول ابن اللبانة:

"كنت مع المعتمد بأغمات. فلما قاربت الصدر، وأزمت السفر، صرف حيله واستنفد ما قبله. وبعث إلى مع شرف الدولة ولده - وهذا منبنيه أحسن الناس سمتًـا، وأكثرهم صمـتًا، وتخجله اللفظة، وتجرحـه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع فى اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين - بعشرين مثـقالاً مرابطية وثوبين غيرْ مخيطين. وكتب معها أبياتًا منها:

وإن عـــذرته حـالات الفــقـيــر وإن تـنـقع تكـن عـــين الشـكور
تقــبـل مـــا يذوب له حـــيـــاء إليـك النزر من كـف الأســـيــر

فامتنعت من ذلك عليه وأجبته بأبيات منها:

تركت هـواك وهو شـــقـيـق دينى لئن شـــقت برودى عـن غـــدور
ولا كـنـت الطـلـيـق من الـرزايـا ومـا أنا من يقــصـر عن قـصـيـر
جـــذيمـــة أنت، والزباء خـــانت إذا أصـبـحت أجـــحف بالأسـيـر
تصـرف فـى الندى حـيل المـعـالى فــتـســـمح من قليل بـالكثـيــر
وأعـــــجب منـك أنك فـى ظلام وترفـع للـعـــفــــاة منـار نور
رويدك ســوف توســعى ســروراً إذا عـــاد ارتفـــاؤك للســـرير
وســـوف تحلنى رتب المـعـــالى غــداة تحل فى تـلك القــصـــور

تزيد على ابن مروان عطاء بها، وأزيد ثم على جرير

تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

وأتبعتها أبياتًا منها:

حاش لله أن أجيح كريما يتشكى فقرًا وكم سد فقرا

وكفاني كلامك الرطب نيلا كيف ألفى درًا وأطلب تبرا

لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الأرض قطرا

اختصر ابن اللبانة الأبيات التى أرسلها المعتمد مع الهدية والأبيات التى أجاب هو بها. كما أغفل أبيات المعتمد التى أرسلها إليه حينما رد الهدية معتذرًا. وكذلك اختصر الأبيات التى أجاب بها هو عن أبيات المعتمد.

فرأيت أن أثبت الأبيات التى اختصرها الشاعر والتى أغفلها، على ما فى هذا من إطالة، حرصًا على تعريف القارئ بما نظمه المعتمد فى أيام أسره وما راسل بها الشاعر الوفى ابن اللبانة خاصة.

أثبت ابن اللبانة بيتين للمعتمد أولهما:

إليك النزر من كف الأسير. . . . وبعدها هذه الأبيات:

ولا تعجب الخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور؟

ورج لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير

وكم أعلت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أمير

وكم من منبر حنت إليه أعالى مرتقاه، ومن سرير

زمان تراحفت عن جانبيه جياد الخيل بالموت المبير

فقد نظرت إليه عيون نحس ... مضت منه بمعدوم النظير

نحوس كن فى عقبى سعو ... كذاك تدور أقدار القدير

وكم أحظى رضاه من حظى ... وكم شهرت علاه من شهير

زمان تنافست فى الحظ منه ... ملوك قد تجور على الدهور

بحيث يطير بالأبطال ذعر ... ويلفى ثم أثبت من ثبير

فأجاب ابن اللبانة بهذه الأبيات:

سقطت من الوفاء على الخبير ... فذرنى والذى لك فى ضميرى

تركت هواك وهو شقيق دينى ... لئن شقت برودى عن غدور

ولا كنت الطليق من الرزايا ... لئن أصبحت أجحف بالأسير

أسير ولا أصير إلى اغتنام ... معاذ الله من سوء المصير

إذا ما الشكر كان، وإن تناهى، ... على نعمى، فما فضل الشكور؟

جذيمة أنت والزباء خانت ... وما أنا من يقصر من قصير

أنا أدرى بفضلك منك إنى ... لبست الظل منه فى الحرور

غنى النفس أنت وإن ألحت ... على كفيك حالات الفقير

تصرف فى الندى حيل المعالى ... فتسمح من قليل بالكثير

أحدث منك عن نبع غزير ... تفتح عن جنى زهر نضير

وأعجب منك أنك فى ظلام ... . إلخ

تأتى خمسة الأبيات الأخيرة على النسق الذى فى رواية ابن اللبانة.

وهذه الأبيات التى أنشأها المعتمد حين أبى ابن اللبانة قبول الهدية:

رد برى بغيًا على وبرا ... وجفا فاستحق لومًا وشكرًا
حاط نزرى إذ خاف تأكيد ضرى ... فاستحق الجفاء أن حاط نزرا
فإذا ما طويت فى البعض حمدًا ... عاد لومى فى البعض سرًا وجهرا
يا أبا بكر الغريب وفاء ... لا عدمناك فى المغارب ذخرا
أى نفع يجدى احتياط شفيق ... مت ضرًا فكيف أرهب ضرا

فأجاب ابن اللبانة:

أيها الماجد السميدع عذرا ... صرفى البر إنما كان برا
حاش لله أن أجيح كريمًا ... يتشكى فقرًا وكم سد فقرا
لا أريد الجفاء فيه عقوقًا ... غدر الدهر بى لئن رمت غدرا
ليت لى قوة أو آوى لركن ... فترى للوفاء منى سارا
أنت علمتنى السيادة حتى ... ناهضت همى الكواكب قدرا
ربحت صفقة أزيل برودًا ... عن أديمى بها والبس فخرا[1]
وكفانى كلامك الرطب نيلا ... كيف ألقى درا وأطلب تبرا
لم تمت إنما المكارم ماتت ... لا سقى الله بعدك الأرض قطرا

* * *

(١) كان فى هدية المعتمد ثياب. فالشاعر يقول لبست الفخر بعد البرد وهى صفقة رابحة.

واستمع ما يقول الفتح بن خاقان عن الشاعر وأميره حين زاره فى محبسه: "وفى هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة. وكان المعتمد رحمه الله يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه على فرسان هذا الشأن. فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت ساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود. وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعًا إلا ممزوجًا بدم. بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية وتكف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد، من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراثى أربد[1] أو بكاء ذى الرمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقًا لاحبًا، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحبًا، فمن ذلك قوله:

انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها السفلى قد كتمت ... سريرة العالم العلوى أغمات

طوت مظلتها، لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات

من كان بين الندى والبأس أنمله ... هندية، وعطاياه هنيدات

رماه من حيث لم تستره سابغة ... دهر مصيباته نبل مصيبات

أنكرت إلا التواءات القيود به ... وكيف تنكر فى الروضات حيات

غلطت بين همايين[2] عقدن له ... وبينها، فإذا الأنواع أشتات

---

(١) معبد الغنى المعروف وأربد أخو لبيد الشاعر. رثاه أخوه رثاءًا موجعًا.

(٢) همايين جمع همميان. وهو حزام عريض أجوف يوضع فيه المال ويشد على الوسط.

وقلت هن ذؤابات فلم عكست ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات

حسبتها من قنا أو من أعنته ... إذا بها لثقاف المجد آلات

دروه لينا فخافوا منه عادية ... عذرتهم. فلعدو الليث عادات

لو كان يفرج عنه بعض آونة ... قامت بدعوته حتى الجمادات

بحر محيط عهدناه تجيء له ... كنقطة الدارة، السبع المحيطات

لهفى على آل عباد فإنهم ... أهلة مالها فى الأفق هالات

راح الحيا وغدا منهم بمنزلة ... كانت لنا بكر فيها وروحات

أرض كأن على أقطارها سرجًا ... قد أوقدتهن بالأدهان أنبات

وفوق شاطىء واديها رياض ربًا ... قد ظللتها من الأنشام دوحات[1]

إلى أن يقول بعد تعديد مواطن السرور واللهو فى ديار بنى عباد:

معاهد ليت أنى قبل فرقتها ... قد مت والتاركوها ليتهم ماتوا

فجعت منها بإخوان ذوى ثقة ... والأرض فيها من الأخوان آفات

* * *

وسنة ست وثمانين وأربعمائة بعد أسر المعتمد بسنتين، كان الشاعر فى أغمات يواسى الأمير، ويندب حظه، وينظم القصائد أوزانها وقوافيها من اللوعات والزفرات. أنشا هناك قصيدة طويلة منها:

لئن عظمت فيك الزرية إننا ... وجدناك منها فى البرية أعظما

قناة سعت للطعن حتى تقصفت ... وسيف أطال الضرب حتى تثلما

---

(١) الأنشام جمع نشم وهو شجر.

ومنها:

بكى آل عباد ولا كمحمد ... وأولاده صوب الغمامه إذ همى

حبيب إلى قلبى حبيب، لقوله: ... "عسى طلل يدنوبهم ولعلما"[1]

صباحهم كنا به نحمد السرى ... فلما عدمناهم سرينا على عمى

وكنا رعينا العز حول حماهم ... فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى

ومنها:

حكيت وقد فارقت ملكك مالكًا ... ومن ولهى أحكى عليك متمما[2]

مصاب هوى بالنيرات من العلا ... ولم يبق فى ارض المكارم معلما

تضيق على الأرض حتى كأنما ... خلقت وإياها سوارًا ومعصما

ندبتك حتى لم يخل لى الأسى ... دموعًا بها أبكى عليك ولا دما

وإنى على رسمى مقيم، فإن أمت ... سأجعل للباكين رسمى موسما

بكاك الحيا، والريح شقت جيوبها ... عليك، وناح الرعد باسمك معلما

ومزق ثوب البرق واكتست الضحى ... حدادًا وقامت أنجم الجو مأتما

وحارابنك الإصباح وجدًا فما اهتدى ... وغار أخوك البحر فيضًا فما طمى

وما حل بدر التم بعدك دارة ... ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما

وكانت قيود المعتمد انفكت عنه فأشار إلى هذا فى القصيدة:

---

(١) حبيب... أبو تمام الشاعر.

(٢) مالك بن نويرة رثاه أخوه متمم بقصائد مبكية.

قـيودك ذابت فـانطلقت لقد غـدت قـيـودك منهم بـالمكارم أرحـمـا

عجـبت لأن لان الحديد وإن قـسوا لقـد كـان منهم بـالسـريرة أعلمـا

سينجيك من نجى من السجن يوسفًا ويؤويك من آوى المسيح بن مريمـا

* * *

هذا الشاعر الوفى يشيد بممدوحه فى أسره، ويلوم آسريه وهم أصحاب الدولة والسطوة، ويـؤمل له النجـاة والعـود إلى ملكه. وفى هذا مـخـاطرة بنفسـه، وتعرض لعقاب المرابطين وهو فـى سلطانهم. والشاعر فيـهذا كله لا يريد جزاء ولا شكورًا، ولكنه الرثاء للصديق، والوفاء لصاحب المعروف.

قال المقرى فى نفح الطيب:

"ولأبى بكر الدانى المذكور فى البكـاء على أيامهم وانتثار نظامـهم عدة مقطعات وقصائد هى قرة عين الطالب، ونجعة الرائد. وقد اشتمل عليها جزء لطيف صدر عنه فى هيئـة تصنيف سماه "السلوك فى وعظ الملوك"[1] ووفد على المعتمد بأغمات عدة وفادات لم يـخل فى جميعها من إفادات. وقال فى إحداها: "هذه وفادة وفاء لا وفادة اجتداء".

أقول: تقدم أنه أبى أن ينال شيئًا من المعتمد بعد نكبته. فقول المقرى أو من نقل عنه "لم يخل فى جميعها من إفادات" لا أدرى ما سنده.

* * *

وتصور هذا المرأى الفظيع: مر ابن اللبـانة فى أحد الأسواق - فإذا ابن من أبناء المعتمد، كان يلقب فى سلطـان أبيه بفخر الدولة، اضطره نكد الدنيا

(١) ذكر آنفًا باسم نظم الملوك فى مواعظ الملوك.

وقسوة الزمـان، إلى أن يخدم فى حانوت صائغ ليحـصل قوته. رآه ينفخ فى الفحم ليشعل النار. فماذا يقول الصـديق الشاعر حين يرى ابن المعتمد، ومن رآه فى ظلال النعمة والسؤدد، ينفخ النار فى حـانوت صائغ، أى مرأى يهيج الأحزان، ويملئ عبر الزمان. . . قال:

شكاتنا لك يا فـخـر العـلا عظمت ... والرزء يعظم فـيـــمن قـدره عظمـا
طوقت من نائـبـات الدهر مـخنقـة ... ضـاقت عليك وكم طوقـتنا نعـمـا
وعـاد طـوقك فى دكـان قـــارعـة ... من بعد ما كنت فى قـصر حكى إرما
صـــرفـت فى آلة الصـــواغ أنملة ... لم تدر إلا الندى والسـيف والقلمـا
يد عـهـدتك للتـقـبـيل تبسطهـا ... فـتـسـتـقل الثـريا أن تكون فـمـا
يا صـائغًـا كـانت العليـا تصـاغ له ... حليـا وكـان عليـه الحلـى منتظمـا
للنفخ فى الصور هول مـا حكاه سوى ... هول رأيتك فـيـه تـنفخ الفـحـمـا
وددت إذ نظرت عـــينى إلـيك به ... لو أن عـينى تشكو قبل ذاك العـمى
ما حطك الدهـر، لما حط، من شرف ... ولا تحـيـف من أخـلاقك الكـرمـا
لح فى العلا كوكبًـا إن لم تلح قمرًا ... وقم بهـــا ربوة إن لم تـقم علمـــا
واصـبر فـربتمـا أحـمدت عـاقبـة ... من يلزم الصبر يحـمد غب ما لزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ... ولو وفى لك دمع الغيث لا نسجما
أبكى حـديثك حتى الدر حـين غدا ... يحكيك رهطًا وألفـاظًا ومـبتـسمـا

وأختم حـديث الشاعر الوفى والأمـير التعيس، بأبـيات نظمها الشـاعر يذكر معاهد العز والجذل من ديار بنى عباد:

أستودع الله أرضًا عندما وضحت ... بشائر الصبح فيها بدلت حلكا

كان المؤيد بستانًا بساحتها ... يجنى النعيم وفى عليائها فلكا[1]

فى أمره لملوك الدهر معتبر ... فليس يغتر ذو ملك بما ملكا

نبكيه من جبل خرت قواعده ... فكل من كان فى بطحائه هلكا

* * *

٢

وفاء ابن حمديس

ومن الشعراء الذين وفوا للمعتمد فى أسره، وواسوه فى محنته الشاعر عبد الجبار. ابن حمديس.

لما أسر المعتمد وأخذ إلى أغمات، أنشأ الشاعر قصيدة تنبض حزنًا ولوعة، وتنطق بما كرب الشاعر فى هذه النازلة:

أباد حياتى الموت إن كنت ساليًا ... وأنت مقيم فى قيودك عانيا

وإن لم أبار المزن قطرًا بأدمع ... عليك فلا سقيت منها الغواديا

تعريت من قلبى الذى كان ضاحكًا ... فما ألبس الأجفان إلا بواكيا

وما فرحى يوم المسرة طائعًا ... ولا حزنى يوم المساءة عاصيا

وهل أنا إلا سائل عنك سامع ... أحاديث تبكى بالنجيع المعاليا

إلى أن يقول:

---

(١) المؤيد هو المعتمد على الله.

وما كنت أخشى أن يقال محمد ... يميل عليه صائب الدهر قاسيا

حسام كفاح بات فى السجن مغمداً ... وأصبح من حلى الرياسة عاريا

فيا جبلا هد الزمان هضابه ... أما كنت بالتمكين فى العز راسيا؟

قصرت ولما تقض حاجتك التى ... جرى الدهر فيها راجلا لك حافيا

ويقول:

أمر بأبواب القصور وأغتدى ... لمن بان عنها فى الضمير مناجيا

وأنشد لا ما كنت فيهن منشداً ... ألا حى بالدو الرسوم الخواليا

وأدعو بنيها سيداً بعد سيد ... ومن بعدهم أضحت رماما بواليا

مضيت حميداً كالغمامة أقشعت ... وقد ألبست وشى الربيع المغانيا

سأدمى جفونى بالسهاد عقوبة ... إذا وقفت عنك الدموع الحواريا

وأمنع نفسى من حياة هنيئة ... لأنك حى تستحق المراثيا

وكتب المعتمد إلى ابن حمديس الأبيات التى أولها:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكى عليه منبر وسرير

وقد أثبتها فيما تقدم.

فأجاب الشاعر:

جرى بك جد بالكرام عثور ... وجار زمان كنت فيه تجير

لقد أصبحت بيض الظبى فى غمودها ... إناثًا لترك الضرب، وهى ذكور

تجىء خلافًا للأمور أمور ... ويعدل دهر فى الورى ويجور

أتيــأس من يـوم يناقض أمــســه | وزهر الدرارى فـى البــروج تدور
وقـد تنبـه الأقـدار بعد خمـولهـا | وتخـرج من تحت الخسـوف بدور
لئن كنت مـقصـوراً بدار عـمرتهـا | فقـد يقصـر الضرغـام وهو هصور
أعـز الأسـارى أن يقـال: محـمـد | غــريب بأرض المغــربين أسيــر

إلى أن يقول:

إلى اليـوم لم تذعر قطا الليل قـرح | يغـيـر بهـا عند الصـبـاح مـغـيـر
ولا راح من نـادى المكارم بـالغنى | يقلبــه فى الراحــتين فــقـيــر
لقـد صنت دين الله خيــر صيـانة | كـأنك قلب فــيـه وهو ضـمـيـر
ولما رحلـتم بالنـدى فى أكــفـكم | وقلقـل رضـــوى منكم وثــبـيـــر
رفـعت لسـانى بالقـيامـة قـد أتت | فـهذى الجـبـال الراسيات تـسير

* * *

وذهب الشاعـر لزيارة المعتمـد فى أغمات فـصرفه بعض خـدمه بأنه لا يوجد فى ذلك الوقت. فرجع عـبد الجبار إلى منزله. فأخـبر المعتمد بمجـيئه ورجوعه فعسر ذلك عليه وعنف خدمه. وكـتب إليه بالغداة بهذا الشعر يعتذر إليه:

حجبت فـلا والله ما ذاك عن أمرى | فأصغ فدتك النفس سـمعًا إلى عذرى
فـما صـار إخـلال المكارم لى هوى | ولا دار إخـجال لمثلك فى صـدرى
عـدمت من الخــدام كل مـهـذب | أشـيــر إليــه بالخـفى مـن الأمـر
ولــم يـبـق إلا كـل أدكـن ألـكـن | فــــلا آذن فى الأذن يــــرى

حمار إذا يمشى، ونسر محلق ... إذا طار. بعدًا للحمار وللنسر

وليس بمحتاج أتانًا حمارهم ... ولا نسرهم ممن يحن إلى وكر

وهل كنت إلا البارد العذب، إنما ... به يشتفى الظمآن من غلة الصدر

ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها ... إذا نزعت نفسى إلى ذلة الخمر

وأنت ابن حمديس الذى كنت مهدبًا ... لنا السحر، إذ لم يأت فى زمن السحر

فأجابه ابن حمديس بأبيات منها:

وإنى امرؤ فى خجلة مستمرة ... يذوب لها فى الماء جامدة الصخر[1]

أتتنى قوافيك التى جل قدرها ... مبا نقطة منهن مغرقة بحرى

لعلك إذ أغنيتنى منك بالندى ... أردت الغنى لى من مديحك بالفخر

لعمرك إنى ما توهمت ريبة ... تبرقع وجه العرف عندك بالنكر

***

وكنت أمل الجود منك وأنت لا ... تمل عطاء منك يأتى على الوفر

فكيف أظن الظن غير مبرأ ... تواضع فيها كوكب الجو عن قدر

يخف على خدام ملك حجابتى ... كما خف هدب فى العيون على شفر

إلى أن يقول:

ليالى لا أشدوك إلا مطوقًا ... بنعماك فى أفنان روضاتك الخضر

---

(١) هذه الأبيات محرفة فى الديوان - وكل قصائد الديوان محرفة - وقد صححتها قدر الطاقة. ومن أمثلة التحريف أن الشطر الثانى من البيت الثانى جاء فى الديوان: بما نقطة منهم معروفة تجرى وصححتها كما يرى القارئ.

وما زال صوب من نداك يبلنى ... ويثقلنى حتى عجزت عن الوكر

بكيت زمانًا كان لى بك ضاحكًا ... وكسر جناحى كان عندك ذا جبر

وأطرقت لما حالت الحال حيرة ... تحير منها عالم النفس فى صدرى

فخذها كما أدرى، وإن كل خاطرى ... وإن لم يكن منها البديع الذى تدرى

***

٣

المعتمد وابن زهر فى أغمات

يقول المراكشى فى كتاب "المعجب فى تلخيص أخبار المغرب":

"وكان الوزير أبو العلاء بن زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش، قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه، فكتب إليه المعتمد راغبًا فى علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه.

فكتب إليه الوزير مؤديًا حقه، ومجيبًا له عن رسالته، ومسعفًا له فى طلبته. وافتق أن دعا له أثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد فى ذلك:

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى ... أسير أن يطول به البقاء

أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشقى بها الشقاء

فمن يك من هواه لقاء حب ... فإن هواى من حتفى اللقاء

أأرغب أن أعيش أرى بناتى ... عوارى قد أضر بها الحفاء

خوادم بنت من كان قد أعلى ... مراتبه، إذا أبدو، النداء

وطرد الناس بين يدى ممرى ... وكفهم إذا غص الفناء

وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء

يعنيه أمام أو وراء إذا اختال الأمام أو الوراء[1]

ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير خالص نفع الدعاء

جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى برا، وصاحبك العلاء

سيسلى النفس عما فات علمى بأن الكل يدركه الفناء

* * *

(١) الظاهر أنه يعنى عريف الشرطة. وقد أرسلت بنته صوفًا إلى بنات المعتمد ليغزلنه لها.

أولاد المعتمد وأمهم

يقول الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان بعد ذكر المعتمد وشجاعته وجوده وأدبه واجتماع الأنجاد والشعراء والأدباء بساحته:

"وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زينا، ولتلك الجملة عينا. إن ركبوا خلت الأرض فكًا يحمل نجوما، وإن وهبوا رأيت الغمام سجومًا. وإن أقدموا أحجم عنترة العبسى، وإن فخروا أفحم عرابة الأوسى".

ويقول ابن اللبانة[1]:

"وكان له من بنيه عقدة أقمار نظمهم نظم السلك، وزين بهم سماء ذلك الملك. فكانوا معاقل بلاده، وحماة طارفه وتلاده".

وقبل أن أثبت ما جمعته من شتات الأخار فى سيرة أولاد المعتمد أذكر طرفًا من أخبار أمهم، التى اقترن سعدها بسعد المعتمد، ونحسها بنحسه وقبرها بقبره. ولها فى الأدب أخبار سائرة وأشعار.

قال فى نفح الطيب:

"ومن المشهورات بالأندلس اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده وتشهر بالرميكية"[2].

ثم يقص صاحب النفح من طرائفها عبارات تدل على ولوعها بالنادرة وكلفها بالجنسا حتى فى أيام المحنة: قال: "ولما خلع المعتمد وسجن بإمات قال له: يا سيدى لقد هنا هنا - فقال مجنسًا أيضًا:

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٧٦.

(٢) نسبة إلى رميك تاجر فى إشبيلية - كانت من جواريه.

قالت: لقد هنا هنا مولاى أين جاهنا

قلت: لها إلا هنا صيرنا إلى هنا

وحكى أنها قالت له وقد مرض: يا سيدى ما لنا قدرة على مرضاتك فى مرضاتك.

ولما قال ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة فى المعتمد والرميكية أغرت المعتمد به حتى قتله وضربه بالطبرزين ففلق رأسه وترك البرزين فى رأسه

فقالت الرميكية. . صار ابن عمار هداهداً.

وقد قدمت خبر هذه القصيدة فى ترجمة ابن عمار.

ثم ينقل صاحب النفح عن ابن سعيد قوله:

"كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف نوادرها. ولم تكن لها معرفة بالغناء. وإنما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة لها فى كل ذلك نوادر محكية".

"وكانت فى عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن. وهى أبدع منها ملحًا، وأحسن افتنانًا وأجل منصبًا. وكان أبوها أمير قرطبة ويلقب بالمستكفى بالله. وأخبار أبى الوليد بن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة".

هذا ما نقله المقرى عن ابن سعيد.

ويقول صاحب النفح:

"ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة التى قال فيها المعتمد لها: ولا يوم الطين".

وخلاصة ما ذكره المقرى وغـيره فى هذه القصة، أن الرميكية أطلت من قصرها فـرأت القرويات فى يوم مطير، يمشين فى الوحل فى طرق إشـبيلية، وعلى رءوسهن الجرار، فاشـتهت أن تتشبه بهن، فأمر المعتـمد فسحقت أنواع من الطيب فى ساحة القـصر ثم صب عليها مـاء الورد من غرابيل. وعجنت بالأيدى حتى صارت كالطين، فمشت الرميكية وجواريها فى هذا لوحل.

وقد غاضبت المعتمد يومًا فأقسمت أنها لم تر منه خيرًا قط. فقال: ولا يوم الطين. فاستحت واعتذرت.

* * *

أسرت الرميكية مع زوجها، وقضت أيام المحنة فى صحبته، ودفنت فى جواره. وتناقل المغاربة أخبـار المعتمد وأخبارها عصورًا بعـد وفاتهما. وكانت أخبارهمـا شائعة فى المغرب حـتى عصر المقرى - مـؤلف نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ.

* * *

أولاد المعتمد

فى كتب التاريخ الأندلسى والأدب، أخبار شىء من أخبار أولاد المعتمد، وكانوا كأبيهم أنجادًا أجوادًا شعراء.

يقول الشاعر أبو البكر الدانى المعروف بابن اللبانة يمدح المعتمد وبنيه:

يغيثك فى محل، يعينك فى ردى ... يروعك فى درع، يروقك فى برد

جمال وإجمال وسبق وصوله ... كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

بمهجته شاد العلا ثم زادها ... بناء بأبناء جحاجحة لد

بأربعة مثل الطباع تركبوا ... لتعديل جسم المجد والشرف العد

هؤلاء الأربعة هم الرشيد عبد الله والراضى يزيد والمأمون والمؤتمن كما روى ابن خلكان. وأحسب أنهؤلاء كانوا الكبار من بنى المعتمد. وللمعتمد أولاد آخرون نجد أسماءهم فى كتب التاريخ والأدب. نجد الظافر والمعتد ومالكًا وعبد الجبار وأبًا هاشم وبثينة وشرف الدولة وفخر الدولة.

أبدأ بالحديث عن هؤلاء الأربعة الذين عددهم ابن اللبانة. ثم أثبت نتفًا من أخبار الآخرين.

وأبدأ من الأربعة بالراضى إذ ترجم له الفتح بن خاقان بعد ترجمة أبيه. ولم يترجم لإخوته فدل على أنه بلغ درجة الشعراء الذين يترجم لهم الفتح.

الراضى بالله

أبو خالد يزيد بن المعتمد

يقول الفتح بن خاقان:

"ملك تفرع من دوحة سناء، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. وتحدر من سلالة أكابر، ورقاة أسرة ومنابر. وتصرف أثناء شبيبته بين دراسة معارف، وإفاضة عوارف. وكلف بالعلم حتى صار ملهج لسانه، وروضة أجفانه. لا يستريح منه إلا إلى فرس سائل الغرة، ميمون الأسرة، يسابق به الرياح، ويحاسن بغرته البدر الياح، عرنين فى السناء، عتيق الاقتناء، سريع الوخد والإرقال، من ولد أعوج أو ولد لذى العقال.

إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء وضم إليها رندة الغراء.

فانتقل متن الجواد إلى ذروة الأعواد. وأقلع عن الدراسة، إلى تدبير السياسة، وما زال يدبرها بجودة ونهاه، ويورد الأمل فيها مناه، حتى غدت عراقًا، وامتلأت إشراقًا. إلى أن اتفق فى أمر الجزيرة ما أتفق، وخاب فيها الرجاء وأخفق، واستحالت بهجتها، وأحالت عليها من الحوادث لجتها. فانتقل إلى رندة معقل أشب، ومنزل إلى السماك منتسب. وأقام فيها رهين حصار، ومهين حماة وأنصار، ولقيت ريحه كل إعصار. حتى رمته سهام الخطوب عن قسيها، وأمكنت منه يدى مسيتها، فحواه رمسه، وطواه من غده أمسه. حسبما بسطنا القول فيما مر من أخبار أبيه" أ هـ.

كان الراضى والى الجزيرة الخضراء حين عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، ومما يؤثر من أخباره: أنه قبض على ابن عمار فى شقوره سنة ٦٧٧ كما تقدم فى أخبار هذا الشاعر.

كان الراضى كلفا بمطالعة الكتب والدواوين، مولعًا بالشعر. ومما يؤثر من شعره، ما كتب إلى أبيه حين عتب إليه قعوده عن لقاء العدو، وعكوفه على دفاتره. وكان العدو قصد لورقة والراضى فى رنده، فأمره المعتمد بالخروج إليه فتلكأ. فوجه المعتمد ابنه المعتد للقاء العدو فهزم جيش المعتد. واشتد غضب المعتمد على الراضى فكتب الراضى إليه:

لا يكرثنك خطب الحادث الجارى ... فما عليك بذاك الخطب من عار
ماذا على ضيغم أمضى عزيمته ... إن خانه حد أنياب وأظفار
ماذا أتوك فمن جبن ومن خور ... قد ينهض العير نحو الضيغم الضارى
عليك للناس أن تبقى لنصرتهم ... وما عليك لهم إسعاد أقدار
لو يعلم الناس فيما أن تدم لهم ... بكوا لأنك من ثوب الصبا عارى
ولو أطاقوا انتقاصًا من حياتهم ... لم يتخفوك بشىء غير أعمار

فلم يرضى أبوه عنه، ولا غفر له زلته، ثم كتب إليه ساخرًا به:

الملك فى طى الدفاتر ... فتخلّ عن قود العساكر
طف بالسرير مسلمًا ... وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعارف ... تقهر الحبر المغامر
واطعن بأطراف اليراع - نصرت - ... فى ثغر المحابر
واضرب بسكين الدواة ... مكان ماضى الحد باتر
أو لست رسطاليس إن ... ذكر الفلاسفة الأكابر
وأبو حنيفة ساقط ... فى الرأى حين تكون حاضر

وكذاك إن ذكر الخليل … فأنت نحوى وشاعر

من هرمس من سيبويه … من ابن فورك إذ تناظر؟

هذى المكارم قد حويت … فكن لمن حاباك شاكر

فاقعد فإنك طاعم … كاس. وقل هل من مفاخر

لحجبت وجه رضاى عنك … وكنت قد تلقاه سافر

أو لست تذكر وقت لورقة … وقلبك ثم طائر

لا يستقر مكانه … وأبوك كالضرغام خادر

هلا اقتديت بفعله … وأطعته إذ كان آمر

قد كان أبصر بالعواقب … والموارد والمصادر

فكتب إليه الراضى:

مولاى قد أصبحت كافر … بجميع ما تحوى الدفاتر

وفللت سكين الدواة … وظلت للأقلام كاسر

وعلمت أن الملك ما … بين الأسنة والبواتر

والمجد والعلياء فى … ضرب العساكر بالعساكر

لا ضرب أقوال بأقـ … ـوال ضعيفات مناكر

قد كنت أحسب من سفاه … أنها أصل المفاخر

فإذا بها فرع لها … والجهل للإنسان عاذر

لا يدرك الشرف الفتى … إلا بعسال وباتر

وهجرت من سميتهم ... وجحدت أنهم أكابر

لو كنت تهوى ميتى ... لوجدتنى للعيش هاجر

ضحك الموالى بالعبيد، ... إذا تؤمل، غير ضائر

إن كان لى فضل فمنك ... وهل لذاك النور ساتر

أو كان بى نقص فمنى ... غير أن الفضل غامر

ذكرت عبدك ساعة ... يبقى لها ما عاش ذاكر

يا ليته قد غيبته ... عندها إحدى المقابر

أتريد منى أن أكون ... كمن غدا فى الدهر غادر

هيهات ذلك مطمع ... يعيى الأوائل والأواخر

لا تنس - يا مولاى - قو ... له ضارع لا قول فاخر

ضبط الجزيرة حينما ... نزلت بعقوتها العساكر

أيام ظلت بها فر ... يدًا ليس غير الله ناصر

إذ كان يعشى ناظرى ... لمع الأسنة والبواتر

ويضم أسماعى بها ... قرع الحجارة بالحوافر

وهى الحضيض سهولة ... لكن ثبت بها مخاطر

هبنى أسأت كما أسأ ... ت، أما لهذا العتب آخر

هب زلتى لبنوتى ... واغفر فإن الله غافر

يقول الفتح:

فقربه وأدناه وصفح عما كان جناه».

ويؤخذ من سيرة الراضى أن أباه كان يلومه بين الحين والحين فيعتذر ويستعتب. وأنه كان يعتب على أبيه لتقديم إخوته عليه. ويظهر أن سيرة الراضى فى العكوف على الكتب والاشتغال بها عن أمور الدولة أحيانًا، كانت منشأ خلاف بينه وبين أبيه.

يقول الفتح فى ترجمة الراضى فى قلائد العقيان:

«وكان المعتمد رحمه الله كثيرًا ما يرميه بملامه، ويُصميه بسهامه. فربما استطلفه بمقال أفصح من دمع المزون، وأملح من روض الحزون. فإنه كان ينظم من بديع القول لآلئ وعقودًا، تسلّ من النفوس سخائم وحقودًا... فمن ذلك قوله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدهم:

أعيذك أن يكون بنا خمول ... ويطلع غيرُنا وبنا أفول

حنانَك. إن يكن جُرمى قبيحًا ... فإن الصفح عن جرمى جميل

ألستُ بفرعك الزاكى وماذا ... يرجّى الفرعُ خانته الأصول

ومن شعر الراضى وقد مر به ركب فيه جماعة من ألّافه فى صباه بعدوا عنه زمنًا:

مرّوا بنا ألا من غير ميعاد ... فأوقدوا نار قلبى أىّ إيقاد

وأذكرونى أيامًا لهوتُ بهم ... فيها ففازوا بإيثارى وإحمادى

لا غروَ أن زاد فى وجدى مرورُهم ... فرؤبة الماء تُذكى غلة الصادى

* * *

وكان الراضى على الجزيرة إذ طلب المرابطون أن يحتلوها حين عبورهم إلى الأندلس فطير إلى أبيه الخبر فأمره بتسليمها.

وقد انتهى أمر الراضى إلى أن قتله المرابطون فى القوارع التى نزلت بساحة بنى عباد حين دهمهم من المرابطين ما دهمهم.

كان الراضى فى رُندة - إحدى معاقل الأدلس النيعة وقواعدها السامية الرفيعة - فقصده جيش من جيوش المرابطين لم يطمع فى حربه وهو فى البلد الحصين والمعقل الأشب. فلما كان فى إشبيلية ما كان أمر المعتمد أن يكتب إلى ابنه الراضى ليسالم المرابطين، وينزل إليهم من معقله. فنزل إليهم إشفاقًا على أبيه وذويه «بعد أن عاقدهم مستوثقًا وأخذ عليهم عهدًا من الله موثقًا. فلما وصل إليهم، وحصل فى يديهم، مالوا به عن الحصن وجرّعوه الردى».

وكانوا قتلوا أخاه المأمون فى قرطبة، وللمعتمد مرثية فيهما أثبتها بعد فى الحديث عن المأمون.

***

الرشيد عبد الله بن المعتمد

قال صاحب نفخ الطيب:

"وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجباء، وله أخبار فى الكرم يقضى الناظر فيها من أمرها عجبًا، وكذلك إخوته"(١).

ومما مر به من غريب الحوادث، أن أبا بكر بن عمار الشاعر الذى وزر للمعتمد بن عباد، وكان له شأن فى دولته حينًا - اضطر فى إحدى مغامراته

(١) نفح الطيب ج٦ ص٨.

أن يرهن الرشيد بن المعتمد عند أمير برشلونة المسيحى الملقب رأس الأسطب على أن يعينه هذا الأمير على أخذ مرسية من يد ابن طاهر، إلى أن يؤدى إليه المعتمد مالا اتفقا عليه[1].

وهو، كأبيه وأمه وإخوته، أديب شاعر، له أخبار قليلة متفرقة فى نفخ الطيب والمغرب والذخيرة.

منها أن أباه أنشأ مصراعًا فى قبته المسماة سعد السعود فوق المجلس المزمى الزاهى: سعد السعود يتيه فوق الزاهى.

واستجاز الحاضرين فعجوزا فقال الرشيد:

وكلاهما فى حسنه متناهى

ومتى اعتدى سكنًا لمثل محمد قد جل فى العليا عن الأشباه

لازال يبلغ فيهما ما شاءه ودهت عداه من الخطوب دواهى[2]

وفى أخبار المعتمد أنه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فصيغا، فجاء وزنهما سبعمائة مثقال فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد والهلال إلى ابنه الرشيد وقال:

بعثنا بالغزال إلى الغزال وللشمس المنيرة بالهلال

إلى آخر القصة[3].

---

(١) الفكر الأندلسى ص٩١.

(٢) نفخ الطيب ج٥ ص١٤٦.

(٣) مقدمة ديوان المعتمد عن نفح الطيب.

وحكى صاحب النفح عن ابن اللبانة:

"كنت بين يدى الرشيد بن المعتمد فى مجلس أنسه فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣هـ فتفجع وتلهف واسترجع وتأسف. وذكر قصر غرناطة فدعونا لعزه بالدوام، ولملكه بتراخى الأيام، وأمر عند ذلك أبا بكر الأشبيلى بالغناء فغنى:

إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر فانظر على أى حال أصبح الطل

فتأكد تطيره، واشتد ابرداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء فغنت:

يا لهف نفسى على مال أفرقه على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ما لست أملك من إحدى المصيبات

قال فتلافيت الحال بأن قلت:

محل مكرمة لا هد مبناه وشمل مأثرة لا شتت الله

البيت كالبين لكن زاد ذا شرفًا أن الرشيد مع المعتد ركناه

ثاوعلى أنجم الجوزاء مقعده وراحل فى سبيل السعد مسراه

حتم لملكك أن يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يمناه ويسراه

بأس توقد فاحمرت لواحظه ونائل شب فاخضرت عذاراه

فلعمرى لقد بسطت من نفسه، وأعدت عليه بعض أنسه، على أنى وقعت فيما وقع فيه الكل لقولى البيت كالبيت.

وأمر إثر ذلك أبا بكر فغنى:

ولما قضيناه من منى كل حاجة ولم يبق إلا أن تزم الركائب

فأيقنا أن هذا التطير، يعقبه التغير "[1].

وقد قدمت في أخبار الشاعر ابن اللبانة قوله في موشحته:

سطا وجاد رشيد بني عباد فأنسي الناس رشيد بني العباس

ونقل صاحب النفح عن الذخيرة لابن بسام:

أخبرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر بن الإشبيلي، قال: حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر بن عمار، فلما دارت الكأس وتمكن الأنس وغنيت أصواتًا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب فارتجل يخاطب الرشيد:

ما ضر أن قيل إسحاق وموصله[1] ها أنت أنت وذي حمص وإسحاق[2]

أنت الرشيد فدع من قد سمعت به وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما دامت بنا ساق

وقد تقدمت في سيرة المعتمد أبيات الرشيد التي أولها:

يا حليف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح

---

(٨) نفح الطيب ج٥ ص٢٣٤

(٩) يعنى إسحاق الموصل المغنى المعروف في عهد الرشيد العباسي.

(١٠) إشبيلية سماها عرب الأندلس: حمص

المأمون بن المعتمد

اسمه عباد ويكنى أبا الفتح وأبا نصر أيضًا

يقول المراكشى: هو أكبر أولاده، ولد له فى حياة أبيه المعتضد وسماه عبادًا.

ولاه أبوه قرطبة حينما استولى عليها ثانية سنة ٤٧١هـ ولقبه المأمون وبقى أميرًا عليها إلى أن دهيت الدولة العبادية بغارات الملثمين سنة ٤٨٤هـ فقاتل المأمون حتى قتل فى صفر من هذه السنة.

وقد استكتب أيام إمارته بعض كتاب الأندلس، منهم أبو الوليد المصيصى الشاعر[1] ويقول الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان:

"ولما بدت الفتنة وسال سيلها، وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها، نازل المرابطون قرطبة وفيها ابنه المأمون، وكان أشهر ملوك زمانه خيرًا، وأيمنهم طيرًا، ما اشتغل بمعاطاة المدامة، ولا توغل للعصيان شعب ندامة، فأقاموا عليها شهورًا، وأرخو من محاصرتها والتضييق عليها ستورًا، يساورونها مساورة الأراقم، ويباكرونها بداء من الحصار فاقم، والمأمون قد أوجس فى نفسه خيفة، وتوقع منهم داهية مطيفة، فنقل ماله وأهله إلى المدور بعد أن حصنه، وملأه بالعدد وشحنه، وأقام بقصر قرطبة مضطربًا، ولأول نبأة مرتقبًا، إلى أن صبحوه يومًا لعدة كانت بينهم وبين أهلها فى تسم أسوارها، وتقحم أنجادها وأغوارها" إلى أن يقول:

" فلما أحس بهم المأمون خرج بعدد قليل وحد فليل.. فقطع رأسه

---

(١) المغرب ج١ ص٣٨٥.

وحيز، وخيض به النهر وأجيز، ولما استقر بالمحلة رفع على سن رمح وطيف به فى جوانبها، وأخيف به قلب مجانبها".

وللمعتمد فى رثاء المأمون هذا وأخيه الراضى الذى ذكرناه قبلا قصيدة باكية من أبلغ شعر الأحزان الذى أنشأه المعتمد فى نكبته.

قال الفتح بن خاقان فى القلائد:

"وفى ذلك يقول المعتمد يرصيهما، وقد رأى قمرية بائحة بشجنها نائحة بفننها على سكنها، وأماها وكر فيه طائران يرددان نغمًا ويغردان ترحة وترنمًا:

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر ... مساء وقد أخنى على إلفها الدهر

وناحت فباحت واستراحت بسرها ... وما نطقت حرفًا يباح به سر

فمالى لا أبكى؟ أم القلب صخرة؟ ... وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر

بكت واحدًا لم يشجها غير فقده ... وأبكى لآلاف عديدهم كثر

بنى صغير، أو حبيب موافق ... يمزق ذا قفر، ويغرق ذا بحر

ونجمان زين للزمان احتواهما ... بقرطبة النكداء أو رندة القبر

غدرت إذن، إن ضن جفنى بقطرة ... وإن لومت نفسى فصاحبها الصبر[1]

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى ... لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وللأمير المرزأ فى رثاء المأمون والراضى أبيات أخرى أشار فيها إلى ابنه أبى عمرو. وهو الظاهر الذى يأتى ذكره، وقد تقدم أن الظافر قتل فى دولة المعتمد، فشغل عن رثائه بطلب ثأره، وأما المأمون والراضى فقتلهما

(١) يعنى أن الصبر لا يليق به فلا يصاحبه الصبر إلا وقد لومت نفسه.

المرابطون، الأول فى قرطبة ثم الثانى فى رندة، وقد أخذوا قرطبة قبل إشبيلية ورندة بعدها.

وهذه الأبيات:

يقولون صبر لا سبيل إلى الصبر ... سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى

ترى زهرها فى مأتم كل ليلة ... يخمثن لهفًا وسطه صفحة البدر

ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا ... ويا صبر ما للقلب فى الصبر من عذر

مدى الدهر فليبك الغمام مصابه ... بصنويه يعذر فى البكاء مدى الدهر

بعين سحاب واكف قطر دمعها ... على كل قبر حل فيه أخو القطر

وبرق ذكى النار حتى كأنما ... يسعر مما فى فؤادى من الجمر

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه ... يزيد فهل بعد الكواكب من صبر[1]

أفتح لقد فتحت لى باب رحمة ... كما بيزيد الله قد زاد فى أجرى

هوى بكما المقدار عنى ولم أمت ... وأدعى وفيًا؟ قد نكصت إلى الغدر

توليتما والسن بعد صغيرة ... ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى

فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى ... إذ أنتما أبصرتمانى فى الأسر

بعيد على سمعى الحديد نشيده ... ثقيلاً فتبكى العين بالحس والنقر

معى الأخوات الهالكات عليكما ... وأمكما الثكلى المضرمة الصدر

فتبكى بدمع ليس للقطر مثله ... ويزجرها التقوى فتصغى إلى الجزر

---

(١) الفتح هو المأمون - ويزيد هو الراضى.

أبا خـــالـد أورثتنى البـث خـــالدًا　　　أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى[1]

وقلبكمـا مـــا أودع القلب حـســرة　　　تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو[2]

وللمعتمد فى رثائهما قصيدة أخرى فى الديوان أولها:

يا غـيم عـينى أقـوى منك تهـتـانا　　　أبكى لحـزنى ومـا حـملت أحـزانا

ونار برقك تـخـبـــو إثر وقـدتهـــا　　　ونار قلـبى تبـــقى الدهـر بركـــانا

نار ومـاء صمـيم القلب أصـلهمـا　　　مـتى حـوى القلب نيـزانا وطوفـانا

الظافر بن المعتمد

فى كتاب المغرب ترجمة أبى الوليد محمد بن جهور:

"وجاء المأمون بن ذى النون محاصرًا لقرطبة من طليطلة، فاستغاثا (ابنا أبى الوليد) بالمعـتمد بن عبـاد، فوجه لهم ابنه الظاهر بعسكر، فـأقلع المأمون عنهم، فغـدرهم الظاهر وأخذ قرطبـة منهم، وحملهم إلى شلطيش فـسجنوا هناك، وأقـام الظافر مـلكًا على قرطبـة إلى أن دخل عليـه بالليل حـريز بن عكاشة فقتله، وصارت قرطبة للمأمون بن ذى النون ".

وكان عكاشة هذا من أنصار ابن ذى النون، وكان اسـتيلاء المعتمد على قرطبـة المرة الأولى سنة ٦٦١هـ، ثم استـولى عليها مـرة أخرى سنة ٦٧١هـ ولى عليها ابنه الراضى كما تقدم.

وإليك أسجاعًا سجع بها الفتح فى قلائد العقيان فى تولى الظافر قرطبة وقتله:

---

(١) أبو خالد الراضى وأبو النصر المأمون.

(٢) أبو عمر هو الظافر.

"ولما انتظمت فى سلكه (انتظمت قرطبة فى سلك المعتمد) واتسمت بملكه أعطى ابنه الظافر زمامها، وولاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداه، وزاد على أمده وقداه، وجملها بكثرة حبائه، واشتغل بأعبائها عن فنائه[1] ولم يزل فيها آمرًا وناهيًا، غافلاً عن المكر ساهيًا، حسن ظن بأهلها اعتقده، واغترارًا بهم ما رواه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفنوه بدائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرش ثلوه، وعزيز أذلوه، إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلاً، وجر إليها حربًا وويلاً، فبرز الظافر منفردًا من كماته، عيًا عن حماته، وسيفه فى يمينه، وهاديه فى الظلماء نور جبينه، فإن كان غلامًا كما بلله الشباب بأندائه، وألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليله، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله، حتى أمكنهم من عثرة لم يقل لها لعا، ولا استقل منها ولا سعى".

إلى أن يقول:

"ولما كان من الغد حز رأسه ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم، ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأبصار وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسووا للفرار أجنحتهم فمنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه".

ويقول الفتح إن المعتمد شغل عن رثاء ابنه الظافر بطلب ثأره، إلا إشارة إليه فى تأبين أخويه الراضى والمأمون، وتقدمت هذه المرثية.

***

(١) كذا فى القلائد، وأحسب الجملة محرفة
وصوابها: واستقل بأعبائها على فتائه والفتاء الشباب.

عبد الجبار بن المعتمد

وللمعتمد ابن اسمه عبد الجبار ثار على المرابطين وتمنى أن يعيد سلطان بنى عباد، فحالت المنية دون الأمنية.

امتنع عبد الجبار فى حصن أركش، وهو حصن منيع قريب من إشبيلية، فسار إليه قائد المرابطين سير بن أبى بكر، فرابطت جيوشه عند الحصن شهوراً حتى أصاب عبد الجبار سهم أصماه، وبقى أهله وأنصاره ممتنعين بمعقلهم حتى أجهدهم الجوع فنزلوا على حكم المرابطين، يقول الفتح بن خاقان.

«فوصلوا إلى قبة الملمات، وحصلوا فى غصة الممات، فوسمهم الحيف، وتقسمهم السيف".

وقدمت فى أخبار المعتمد أن ثورة ابنه هذه أرابت المرابطين فيه فضيقوا عليه وأرهقوه بالأغلال والقيود، وبينت وقع هذه الثورة على المعتمد ألما وأملاً.

يقول الفتح:

ولما زأر الشبه خيف سورة الأسد ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها، وأحل ساحة الحطوب وفناءها، وحين أركبوه أساودًا وأورثوه حزنًا بات له معاودًا، قال:

غنتك أغماتيه الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان

وقد أثبت الأبيات فى الكلام على محنة المعتمد.

وفى المغرب فى الكلام على أركش.

"من معاقل الأندلس المنيعة المستورة، وقد ثار فيها ولد المعتمد بن عباد فأذاق إشبيلية شرًا حتى قتل بسهم".

ولا أدرى ما الشر الذى ذاقته إشبيلية من ثورة ابن المعتمد بعد انقضاء دولة بنى عباد، واعتقال ملكها فى أغمات، لعل ثورة عبد الجبار أرابت المرابطين بأهل إشبيلة فضيقوا عليهم، كما فعلوا بالمعتد نفسه حين ثار ابنه.

* * *

المعتد بن المعتمد

يأتى ذكر المعتد فى نتف متفرقة، ذكر فى أبيات نظمها أبو بكر الإشبيلى فى مجلس الرشيد بن المعتمد، وقد أثبتها فى الكلام على الرشيد.

وهذا البيت الذى ذكر فيه المعتد:

البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفا ... أن الرشيد مع المعتد ركناه

وذكر كذلك فى أخبار أخيه الراضى أمير رندة، حينما أمره أبوه بالخروج إلى عدوه فتلكأ، فوجه المعتمد جيشًا يقوده ابنه المعتد.

وفى كتاب المقرى فى الكلام على مدينة شلب:

"قد تقدم أن المعتمد بن عباد نشأ فيها وولاه أبوه المعتضد مملكتها، ولما استقل المعتمد بإشبيلية ولى على شلب ابنه المعتد".

وهذا يدل على أنه من كباء أبناء المعتمد إذا كان أهلاً لولاية شلب حين تولى أبوه الملك.

وتقدم أن المعتمد حين أحيط به فى إشبيلية كتب إلى ابنيه الراضى

والمعتد ليستسلما للمرابطين، وكان المعتد فى حصن مارتلة، فلم يسعه هو وأهوه إلا النزول على حكم أبويهما إشفاقًا عليهما وعلى أهليهما.

والمراكشى الذى ذكر كتابة المعتمد إلى ابنه المعتد أن يستسلم للمرابطين، يقول إن المرابطين أخذوا كل ماله ولم يذكر أنهم قتلوه كما قتلوا أخاه الراضى.

* * *

أبو هاشم

قدمت أن المعتمد تذكر وقد اشتد البأس وحمى الوطيس يوم الزلافة طفلاص له اسم أبو هاشم فأنشد بيتين:

أبا هاشم هشمتى الشفار   فلله صبرى لذاك الأورار

ذكرت شخيصك تحت العجاج   فلم يثنى ذكره للفرار

وقدمت كذلك أن ابنه أبا هاشم دخل عليه وقد ثقلت القيود برجليه فأنشأ أبيات من الحسرات والزفرات:

قيدى أما تعلمنى مسلمًا   أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم   قد أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرنى فيك أبو هاشم   فينثنى والقلب قد تهشما

ارحم طفيلا طائشًا لبه   لم يخش أن يأتيك مسترحما

.. إلى آخر الأبيات

شرف الدولة وفخر الدولة

ذكرهما ابن اللبانة الشاعر فى أحاديثه عن بؤس المعتمد وشقائه، حديث أنه زار المعتمد فى أغماث، فلما أزمع الرحيل أرسل إليه المعتمد هدية مع ولده شرف الدولة، وقال ابن اللبانة:

"وهذا من بنيه أحسن الناس سمتا، وأكثرهم صمتا، تخجله اللفظة، وتجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع فى اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين".

وفخر الدولة الذى رآه الشاعر فى دكان صائغ ينفخ فى الفحم فتقطع قلبه كمداً وصعدت نفسه زفراً فى الأبيات التى قدمتها فى فصل "المعتمد فى أغمات" ومنها:

للنفخ فى الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيتك فيه تنفخ الفحما

وددت إذ نظرت عينى إليك به ... لو أن عينى تشكو قبل ذاك عمى

***

بثينة بنت المعتمد

قال صاحب نفح الطيب وهو يذكر أديبات الأندلس:

"ومنهن بثينة بنت المعتمد بن عباد، وأمها الرميكية السابقة".

وكانت بثينة هذه نحواً فى أمها فى الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب فى قصره كانت فى جملة من سبى، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها فى وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهرو المتداول بين الناس بالمغرب.

وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية ووهبها لابنه، فنظر من شأنها وهيئت له، فلما أراد الدخول بها امتنعت وأظهرت نسبها وقالت: لا أحل لك إلا بعقد نكاح إن رضى أبى بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ... فهى السلوك بدت من الأجياد

لا تنكروا أنى سبيت وأننى ... بنت لملك من بنى عباد

ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد

لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد

قام النفاق على أبى فى ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة فحازنى امرؤ ... لم يأت فى أفعاله بسداد

إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ... من صانننى إلا من الأنكاد

وأرادنى لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بنى الأنجاد

ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضا ... ولأنت تنظر فى طريق رشادى

فعساك يا أبتى تعرفنى به ... إن كان ممن يرتجى لوداد

وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا بالخير والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيعها وهو بأغمات واقع فى شراك الكروب والأزمات، سر هو وأمها بحياتها ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ علما مآل أمرها وجبر كسرها، إذ ذاك أخف الضررين وإن كان الكرب قد

ستر القلب منه حجاب زين، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبى المذكور وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور:

بنيتى كونى به برة فقد قضى الدهر بأسعاد

أولاد آخرون

وقدمنا أن بنات المعتمد دخلن عليه يوم عيد فى أغمات وهن فى أطمار يكسوهن الشحوب والاكتئاب والذل والحزن، فأنشأ بياته التى أولها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد فى أغمات مأسوراً

ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميراً

فقد كان له وهو فى معتقله بنات كبار يغزلن للناس.

ويقول المعتمد فى الأبيات التى أنشأها حين دخل عليه ابنه أبو هاشم وهو مغلول مكبل، يقول لقيده:

ارحم طفيلاً طائشًا لبه لم يخش أن يأتيك مسترحمًا

وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئًا فقد خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئًا فما يفتح إلا لرضاع فما

فهذا يدل على أنه كان له أيام المحنة أطفال ترعرعوا وأطفال لا يزالون رضعًا.

* * *

وفاة المعتمد على الله وقبره

قال الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان:

" ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات وخلده يتردد بين النكبات والعثرات ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات إلى أن شفته منيته وجاءته بها أمنيته، فدفن بأغمات وأريح من تلك الأزمات.

وعطلت المآثر من حلالها ... وأفرزت المفاخر من علاها

ورفعت مكارم الأخلاق وكسدت نفائس الأعلاق، وصار أمرة عبرة فى عصره وصاب أندى عبره فى مصره.

وبعد أيام وافاه أبو بكر بن عبد الصمد شاعره المتصل به المتوصل إلى المنى بسببه، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى وظهر كل متوار وضحى قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزينتهم وحلاهم، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه وخر على تربه ولثمه:

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عواد

لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعًا ... وجعلت قبرك موضع الإنشاد

قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى ... نيران حزن أضرمت بفؤادى

فإذا بدمعى كله أجريته ... زادت على حرارة الأكباد

فالعين فى التسكاب والتهتان ... والأحشاء فى الإحراق والإيقاد

يا أيها القمر المنير أهكذا ... يمحى ضياء النير الوقاد

أفقدت عيني مذ فقدت إنارة لحجابها في ظلمة وسواد

ما كان ظني قبل قبرك أن أرى قبرًا يضم شوامخ الأطواد

الهضبة الشماء تحت ضريحه والبحر ذو التيار والإزباد

عهدي بملكي وهو طلق ضاحك متهلل الصفحات للقصاد

والمال ذو شمل بداد والندى يهمي وشمل الملك غير بداد

أيام تخفق فوقك الرايات فوق كـ ـتائب الرؤساء والأجناد

والأمر أمرك والزمان مبشر بممالك قد أذعنت وبلاد

والخيل تمرح والفوارس تنحني بين الصوارم والقنا الميـاد

وهي قصيدة أطال إنشادها وبنى بها اللواعج وشادها. فانحشر الناس إليه وأحفلوا وبكوا لبكائه وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج مديمين البكاء والعجيج.

ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم وأقرحوا مآقيهم بفيض شئونهم. وهذه نهاية كل عيش وغاية كل ملك وجيش. والأيام لا تدع حيا ولا تألو كل نشر طيا تطرق رزاياها كل سمع وتفرق منایاها كل جمع. وتصمى كل ذى أمر ونهى وترمى كل مشيد بوهى. ومن قبله طوت النعمان بن الشقيقة ولوت مجازها فى تلك الحقيقة».

* * *

وقال مؤلف نفح الطيب:

«قال غير واحد: من النادر الغريب أنه نودى على جنازته: «الصلاة على الغريب» بعد عظم سلطانه وسعة أوطانه وكثرة صقالبه وحبشانه وعظم أمره وشانه. واجتمع عند قبره جماعة من الأقوام الذين لهم فى الأدب حصة ولقضية المعتمد فى صدورهم غصّة. . . . إلخ».

وخاتمة هذه الحوادث الدامية وتلك القصة الباكية أوصى المعتمد أن تكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى

بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمد بالضرغامة العادى

بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى

نعم هو الحق حابانى به قدر ... من السماء فوافانى ليعاد

ولم أكن قبل ذلك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق وعاد

يبكى أخا الذى غيبت وابله ... تحت الصفيح بدمع رائح غادى

حتى يجودك دمع الطل منهمراً ... من أعين الزهر لم بخل بإسعاد

ولا تزال صلاة الله دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

* * *

قصة المعتمد مأساة لا تحتاج إلى افتنان ناثر، وقصيدة حزينة لا تفتقر إلى مبالغة شاعر.

ولا ريب أنها سارت فى أهل عصره وسرت إلى العصور من بعده. وبقى قبر مزار الأدباء ومقصد العلماء.

ويقول المقرى بعد ذكر أخبار المعتمد:

«وقد جمح بنا القلم فى ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح وما ذلك إلا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح. وقد جعل الله تعالى له كما قال أمين الأبار فى الحلة السيراء رقة فى القلوب وخصوصًا بالمغرب. فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم. وإن فيها لأعظم عبرة. رحم الله الجميع»[1].

فهذا لسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس وعالمها وأديبها الذى ألف المقرى كتابه الواسع لتاريخ الأندلس ولسيرته فسماه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» - وناهيك بهذا نباهة شأن وعظم مكانة.

لسان الدين هذا يزور قبر المعتمد بعد ٢٧٣ سنة من وفاته وينشد عنه شعرًا.

قال لسان الدين بن الخطيب[2]:

«وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١هـ. وهو

---

(١) نفح الطيب جـ٦ ص١.

(٢) نفح الطيب جـ٥ ص ٢٣٧.

بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض وقد حفت به سدرة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك. وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك. فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما. فأنشدت فى الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدًا ... ويا سراج الليالى المدلهمات

وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه ... إلى حياتى لجادت فيه أبياتى

أناف قبرك فى هضب يميزه ... فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حيا وميتا واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات

ما رئى مثلك فى ماض، ومعتقدى ... ألا يرى الدهر فى حال وفى آت

ويتبع صاحب نفح الطيب هذا الخبر بقوله:

وقد زرت أنا قبر المعتمد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠هـ. ورأيت فيه مثل ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى. فسبحان من لا يبيد ملكه لا إله إلا هو».

فهذا عالم مؤرخ يزور قبر المعتمد صارت سنة الأدباء والعلماء منذ مات فى القرن الخامس الهجرى إلى عصر المقرى القرن الحادى عشر. ولعلها استمرت من بعض عصورًا أخرى.

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٣٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

تم إعادة الرفع بواسطة

مكتبة عسكر

ask2pdf.blogspot.com